





من ذكرياتي في التعليم

أحداث وذكريات ومواقف

بسام الرمال



العنوان : من ذكرياتي في التعليم.

المؤلف : بسمّ الرمال.

الطبعة الأولى : نيسان ٢٠١٥م.

عدد النسخ : ٥٠٠

تصميم الغلاف : صبحي عفش.

منشورات : مكتبة إسكندرون.

حلب - الجميلية - شارع إسكندرون.

هاتف : ٢٢١٩٨٠٤ / ٢٢٢١٥١٠

بريد إلكتروني :

E-mail: info@iskandaroun.com

موافقة اتحاد الكتاب العرب

رقم /٢٥/ - ٢٠١٥/٢/١٠

الحقوق كافة محفوظة للمؤلف



## الإهداء

إلى كلّ شمعة أضاءت زمناً ثم انطفأت ، وحسبها أنّها أنارت الطريق  
ولو إلى حين ..

إلى كلّ معلّم ما يزال يسكب نور عينيه ، ليستقي أزهير الوطن ..

إلى كلّ من يرمي بالحبّ والسهر غراسنا الواعدة ..

أهدي هذا الكتاب

## تنويه

قد يجد القارئ تفاوتاً في أسلوب الكتابة بين حادثة وأخرى، أو اختلافاً في طريقة تصوير المواقف، فذلك يعود إلى الفترات الزمنية المتباعدة التي كُتبت فيها كلُّ حادثة أو الحالة الانفعالية بعد كل موقف.



## كلمة لا بد منها

نصف قرن، خمسون عاماً، وأنا أعلو عرشي، أمتطي جوادي الحبيب، أمتطي صهوة المنبر أمام الطلاب، وفوق مصطبة السيورة، أصول وأجول في ساحات الأدب، نصف قرن لم أترجّل عن صهوة جوادي داخل مملكتي الصغيرة الأثيرة، وسيفي البتار لم يغادر كفي، سيفي الحكك (الطباشير) الذي لم أطرحة حتى في الخدمة العسكرية في صفوف محو الأمية، أجدُّ به رأس الجهل والخرافة، ورمحي الذي شهد له الجميع يعانقني، وسيعانقتي حتى آخر زفراتي، رمحي هو صوتي جلجل ويجلجل في جوانب القاعات، أطقن به صدر التخلف والضعف – وكم أتعبني هذا الصوت المرنان – خمسون سنة، لكنّ نجمي في نحوس وهمتي في سعود، خمسون سنة، أولها في قرية تلمالد، وآخرها في مدرسة الأمل (الخاصة)، وما بينهما شؤون وشجون.

انطلقنا عام النكسة إلى الأرياف، نمضغ علقم الهزيمة، نريد أن نصنع من هذا الجيل.. من هذه الغراس رماحاً.. صواعق.. تزلزل العدوان، وتنتزع مفاتيح النصر، وكان لي- على الأقل بشكل فردي- ما أردت، فقد نجح طلابي جميعهم في آخر شهادة للمرحلة الابتدائية عام /١٩٦٨/، أقول جميعهم، رغم أنني مع معلّم آخر نتقاسم الصفوف الستة في مدرسة، لا شيء فيها إلا الطين ثم الطين ثم الطين، أرضاً وسقفاً وجدراناً، كانت مكافأتي من مديرية التربية عقوبة حذف من راتبي.. جزاء سنمار !!

أما مكافأتي من الطلاب، فقد كان من بين الناجحين طالب، تبوأ فيما بعد مركزاً دينياً وسياسياً هاماً، قال لي والده بعد نجاحه: لا أملك ليرة واحدة، فماذا تشير علي، أخذته من يده، وهو ابن اثنتي عشرة سنة إلى مدرسة (الكتاوية) الدينية التي تتكفل بكل ما يحتاجه الطالب، ولا تكف أهله أي مبلغ، فيدرّس ويأكل وينام في المدرسة، كان أثناء دراسته يزورني في بيتي الفينة بعد الفينة، وكنت أكرمه قدر الإمكان، ونشأت بيننا صداقة ومودة، ثم انقطعت أخباره عني، فلما استدّ ساعده، واعتلى المناصب أنكرني، صادفه أخي في إحدى المناسبات الدينية، سأله: هل تعرف شخصاً اسمه (وذكر اسمي)، فقال له على عجل: نعم نعم سلّم عليه، ثم انصرف إلى شخص آخر.

آخر سنواتي الخمسين، وليس آخر المشوار، كان في مدرسة الأمل (الخاصة) عام الجنون، عام ٢٠١٤/ في منطقة السريان الجديدة، ناضلنا، بل قاتلنا، ونحن داخل الصفوف على حدود منطقة الأشرفية على خطوط التماس، بل الأصحّ على خطوط النار، والمتحاربون أمام كنيسة (سان تيريز) التي ندرّس فيها، والرصاص يئزّ ويصفر، والقذائف تهزّ جدران الصفوف، وفي إحدى المرّات سقطت قذيفة فوق سطح الكنيسة، ومرة أخرى أمامها، ونحن ماضون في رسالتنا، كانت النتيجة أننا حقّقنا نجاحاً مئة في المئة، نجح كلّ الطلاب، ودخل نصفهم، بل أكثر من النصف الكليات التي يرغب فيها الجميع، قُبِل نصف الناجحين في كليات الطبّ البشري وطبّ الأسنان والصيدلة، كان من بين الطّلاب الناجحين طالب نال /٢٧٠٠/ من /٢٧٠٠/ درجة، أيّ الأوّل على القطر، ومديريّة التربية لا شأن لها

بهذه النتائج، ولو بكلمة شكر، ولكن حمدتُ الله على أنني لم أنل هذه المرّة من مديريّة التربية مكافأة كالتّي خصّنتي بها، عندما نجح طلابي كلّهم في بداية المشوار في مدرسة (تلمالد).

أمّا ما بين المدرستين ، مدرسة تلمالد ومدرسة الأمل فمساحة زمنيّة كبيرة، تكسّرت فيها النصال على النصال، سنوات خمسون حبلت بالأحداث والمواقف والذكريات، فيها من المرّ الجارح أكثر مما فيها من السارّ الممتع، ورغم كلّ ذلك أنا سعيد بما حقّقته في رحلتي الطويلة، و سأورد من الذكريات ما تُسعفني به الذاكرة، وما يسمح به المقام، لأنه من التقيّة، وكما علّمتنا الأيام أنّه: "ليس كلّ ما يُعلم يُقال".

بسام الرمال

حلب - تموز - ٢٠١٤

## البداية من ( الخوجة )

في غرفة باردة أو قبو رطب يُحشر عشرات الصغار صبياناً وبناتٍ فيما يشبه روضة الأطفال، ولكن شتان، امرأة فقيرة، وغالباً ما تكون عجوزاً أرملة من بقايا العهد العثماني فكراً ومنهجاً في الحياة، تُسمّى (الخوجة)، وفي دمشق يسمّونها (الخجا)، وهناك في دمشق سوق بهذا الاسم، ومعناه بالفارسية السيّد أو البيك.

تُخصّصُ الخوجةُ غرفةً في بيتها الصغير، تضمّ أطفال الحيّ الشعبيّ القديم، الذين لم يبلغوا السابعة من العمر - سنّ القبول في المدارس الابتدائيّة آنذاك- يدفع الولد في آخر الأسبوع يوم الخميس أجراً لاحتوائه في هذا السجن الصغير، قدره ربع ليرة سورّيّة، يسمّى (الخميسيّة) نسبة إلى يوم الدفع الخميس، يجب أن يبقى الطفل متربّعاً على حصير أو بساط، مُتَكَتِّفاً حتّى صلاة العصر، يبقى ثماني ساعات كتمثال (بوذا)، لا يتحرك في صقيع الشتاء حيث تضع الخوجة أمامها منقل النار الشحيح الجمرات، تتدفأ به بمفردها، أو في جوّ خانق صيفاً حيث العرق والضجر وروائح الأجساد، لأن الدوام هنا مستمرّ على مدار العام، صيفاً وشتاءً، لا عطلة إلا في العيدين الفطر والأضحى، والفرصة الوحيدة للخروج من هذه الزنزانة هي أن يأخذ الطفل أذنأً لقضاء حاجته البيولوجيّة، وما أكثر حاجاته البيولوجيّة الكاذبة طوال النهار، حتى تضيق الخوجة به وبرفاقه ذرعاً، فتمنع الخروج، وصاحب الحظّ أو المُدَلَّل عند أهله من يرسلون معه حشّيّة صغيرة

ليجلس عليها اتقاءً البرد أو للراحة من الجلوس على الأرض الصقيلة ساعات مُملّة.

تجلس الخوجة أمام الأطفال لا تتحرّك ولا تريم، وربما أخذتها غفوة أو خرجت لأمر ما، عندها ينطلقون من عقالهم مرحاً وصخباً، فإذا صَحَّتْ أو عادتْ نال من تقع عيناها عليه- وهو يشقّ عصا الطاعة- عقابه ضربات بالعصا أو شدة أذن، وكلمات توجيهية عن آداب السلوك وفضيلة السكوت، يقول بعض الأهالي للخوجة في كلّ زيارة لها " اللحم لك والعظم لنا "، أي هُدِّي وربيّ ولدنا وعاقبيه ولو جرّدت جسده من اللحم، فتأخذ الخوجة حرّيتها في الضرب، وفي الحيّ أكثر من خوجة، وهنّ أنواع كتنوع البشر، فمنهنّ الرفيقات الحنونات، ومنهنّ الشديديات الظالمات.

أحياناً يرفض الطفل الذهاب إلى هذا المُعتَقَل، فيَقْسِرُهُ أهله على الذهاب، وإذا استمرّ في الرفض والبكاء والصراخ يُضْرَب ويَحْمَل إليه حملاً، ونسَمِّيه عندئذ (عصيان)، وفي الخوجة يلاقي معاملة أقسى إذا استمرّ في عناده وعصيانه.

كانت ألعابنا وقت غياب الرقابة تتحصر بحركات الأيدي ولفّ الخيوط على الأصابع واللعب باللسان وتقليد الأصوات، لأن حركتنا محدودة، والمشى ممنوع، وكنا نولّف أو نتوارث الأناشيد أو ما يشبه الأناشيد، ونغنيها بشكل جماعيّ عفويّ، طبعاً دون أن يكون لها معنى، وربما خرجت عن نطاق الأدب. وحبّ الغناء أو الإنشاد من طبيعة الإنسان أو الطفل بشكل خاصّ، فكنا مثلاً نُنشد: "حميدة

ماميدة شخّت على الدولاب، شافها الوالي من درايش الباب، عضّها وباسها وضربها على راسها، كتب اسمها في الدفتر، وقال لها امش على المخفر"، كْنَا على السليقة نُنشد على البحر المتدارك، حركة وسكون حركة وسكون، أو ثلاث حركات وسكون، فكْنَا نحذف حرفاً، أو نمطّ حرف مدّ قصير، ليصبح حرف مدّ طويل، لاستقامة الوزن بشكل يستسيغه سمعنا بشكل عفويّ على البحر المتدارك كما ذكرت، فنلفظ العبارات: "حاميداً ماميداً شخّت عدّ دولاب"، ومن الملاحظ أنّ أغلب الأناشيد والتهافتات الشعبيّة وغير الشعبيّة، تُنظم على وزن البحر المتدارك.

وكانت هذه الأناشيد- إن جاز أن تُسمّى أناشيد- تعتمد إلى جانب الوزن على التقفية الداخلية للمفردات أو الجمل، كما تعتمد على التوازن، والتوازن المسجوع، طبعاً دون أن يكون للكلام معنى، أو يكون بين الجمل ترابط منطقي "عضّها وباسها وضربها على راسها"، اللهم إلا النغمة الموسيقية المحبّبة للطفل الذي بطبعه يحبّ الغناء والترنم.

أذان الظهر، وقت الغداء هو الفرصة الوحيدة المشروعة للأطفال للتحرك بحريّة، والفرحة الوحيدة للانطلاق من الأسر، يُمدّ على الأرض بساط من أكياس الخيش، ويضع كل طفل أمامه طعامه الذي أحضره معه صباحاً، أو ترسله الأم ظهراً طازجاً مما تطبخ، وكثيراً ما تنسى الأمّ ابنها، فيبقى المسكين جائعاً حتى المساء، ووجبة الغداء غالباً ما تكون هزيلة فقيرة، رغيفاً مع قطعة جبن، أو رغيفاً مع

برتقالة فقط، أو رغيماً دُهن فوقه شيء من دبس البندورة (ميّة افرنجي)، فينتشر القمل والأمراض الجلدية والمعدية بين الأطفال نتيجة الجهل بقواعد النظافة، أثناء الطعام وفي غير الطعام، فالأم لا تذهب بأولادها إلى حمّام السوق إلا مرّة كلّ شهر تقريباً.

أما في الصيف الملتهب داخل الغرفة المغلقة فيغزو الطفح الجلدي الأجساد، ويصبغها باللون الزهريّ، فتبدأ الحرقة، ويبدأ الحكّ.

قبل الغداء تدخل الخوجة الغرفة التي يوضع فيها طعام الأولاد، تنتقي ما يعجبها من زاد المُنعّمين، تأكل بعضاً منه، أو تضعه جانباً، والطفل صاحب الزاد لا يعلم بذلك، طبعاً ليس كلّ الخوجات يفعلن ذلك، فمنهنّ من تحلّل وتحرمّ.

كنا ننقلّ من خوجة إلى أخرى بحسب سمعة كلّ منهنّ حول معاملة الأطفال أو نظافة المكان أو حول الأجر، وضعني أهلي مرة عند خوجة، قيل: إنها تعلّم مبادئ القراءة والكتابة، أذكر أن اسمها (بلقيس) ذاكرة الطفولة كما يقال "نقش على الحجر"، أحضرتُ معي كتاباً قديماً لأختي الكبرى للصفّ الأول، قرأت أمام الخوجة الدرس الأوّل ثم الدرس الثاني مستقيماً من الإصغاء إلى أختي ثم أخي، وهما يدرسان ويكرّران في البيت ما أخذه في المدرسة، ثم قرأت الدرس الثالث فالرابع، والفرح يغمرنني، عندها انفجرت الخوجة غضباً، وقالت لي: "العمى، فهمنا! بوذك أن تقرأ الكتاب كلّه! قم من أمامي"، كانت هذه الصدمة العلميّة الأولى في حياتي، ثم تبعها صدمات وصدمات انكفأت خجلاً مكسور خاطر، ولم أعد أحضّر الكتاب

معني، ولم تُعدِ الخوجة تسألني عنه، لقد كان هذا الدرس هو الأوّل والأخير الذي عرفت فيه عالم الحرف قبل دخولي المدرسة الابتدائية في السابعة من عمري.

إحدى هذه الخوجات كانت (إنسكلوبيديا) في العلوم كدائرة المعارف البريطانية، أرادت مرّة أن تزودنا من فيض علومها، كان يُزرع حول قلعة حلب شجر، ثمرة كحبات الزيتون الصغيرة وهو شديد المرارة، كنا نسميه (الززلخت) وحديثاً يسمى شجرة الخيمة، كنا نقطف هذه الثمار للعب بها كالدحل (الكلال)، فقالت الخوجة لنا: الله خلق هذه الشجرة لتأكل الحية من حباتها، فسمّ الحية يأتي من هذه الحبات السامة المرّة التي تأكلها.. زاد الله خوجتنا علماً ومعرفة؟!.

كان زوج إحدى الخوجات- وكنا نسميه الشيخ، لا أدري من أين جاءته هذه التسمية- يدخل بين الحين والحين إلى غرفة الأطفال، فينتقي طفلاً وسيماً، يوقفه جانبه، ويقول له: أنت العريف على رفاقك، وكلّ من (يعجّز) يشاغب قل لي عن اسمه، ويد الشيخ تلامس مؤخّرة الطفل، فيحمرّ وجه الطفل خجلاً، كُنّا نعرف على الرغم من صغرنا أنه يقوم بعمل محرّم ويمس الشرف، فكُنّا نتهرب من هذه الوقفة المذلة، لكننا لم نكن نتجرّأ في ذلك العمر على الاعتراض، أو البوح لأهلينا بما يفعل هذا المنحرف.

في الحارات بعد الانصراف تبدأ المشاجرات التي أجّلت داخل الخوجة، وغالباً ما تكون مشاجرات بريئة وسريعة، ينقسم الأطفال مجموعتين أو أكثر، ويبدأ النزال بالضرب بالأيدي والرفس، يُخلف



أحياناً بعض الخدوش أو الجروح، في اليوم التالي يعود الجميع أصدقاءً متحابين، وقد نسي كل منهم ثأره، إنها الطفولة!! ويا ليتها تدوم، كنت دوماً الخاسر أو المهزوم في هذه المنازلات، لا أدري ما السبب! ربما كنت أوتر السلام، وما زلت، فلا أذكر أنني كنت البادئ بالشر، أو أنني اعتديت على أحد.

وللإنصاف والتاريخ أقول كان في منطقتنا روضة للأطفال، فيها إدارة ومعلمات وصفوف ومقاعد، وهي لعائلة (البُجُك) الميسورة، كان اسمها روضة السلام، وتقع أمام باب جامع الخسروفية الغربي، وهي الوحيدة في منطقة كبيرة تشمل ربع مساحة مدينة حلب آنذاك، والتي كانت تمتد من باب القلعة وحتى حدود المدينة الجنوبي عند مقبرة الصالحين، كانت هذه الروضة للأغنياء فقط، لأن الرسم الشهري فيها خمس ليرات سورية، وهو مبلغ لا بأس به في ذلك الزمان، وقد دخلها أخي الأصغر، وأمضى فيها سنة أو سنتين، وهناك روضة ثانية في حيّ الجلّوم، تسمى روضة العباسية، وهي أصغر من الأولى، وما تزال هذه الأخيرة قائمة حتى اليوم، وقد انتقلت إلى جانب مشفى المارتيني.

كنت من المحظوظين، فمكثتُ في الخوجات- رياض الأطفال هذه الحضارية، التي تشرف عليها منظمة اليونسكو والجمعيات العالمية لرعاية الطفولة- ما يقرب من ستّ سنوات ، كانت والدتي تقول: بدأ ابني بسام يداوم مع إخوته على الخوجة منذ أن كان عمره سنة ونصف" أي أمضيت في جنبات هذه الحدائق التربوية خمس

سنوات ونصفاً فقط، سنوات طفولتي الأولى في أوائل خمسينيات القرن الماضي وفي حيّ السفاحيّة بحلب، وتكوّنت فيها شخصيّتي النفسيّة والانفعاليّة، وتأطّر سلوكي الاجتماعيّ، وبدأت أتعلّم فيها أولى دروس الحياة، وأوطّن نفسي على تقبّلها.

## محطات خريفية

عندما تمتد الغيمات غلالات بيضاء، توشح زرقة السماء..

عندما تخلع الأشجار رداء الصيف الأخضر، لتبترد برداً  
تشرين..

عندما تتجمع الأوراق الصفراء فوق الأرض واحات ذهبية  
مماوجة، تعبت بها النسومات النديّة..

عندما تتنادى الطيور للرحيل، وهي تحزم حقائب السفر..

أغمض عينيّ وأترك زورق الأحلام يبحر في متاهات  
الذاكرة، يتهادى فوق شواطئ الأيام، ليرسو عند كلّ خريف.. نعم عند  
كلّ خريف.. ولكن لماذا الخريف!؟

إنّ من فتح عينيه على المقاعد والكتب والعصا.. من اعتادت  
أذناه على صوت المعلم يجلس، يعلو وينخفض.. من أضع عمره بين  
المحابر والمنابر، لا بدّ أن يكون للخريف عنده نكهة الهال ولذعة  
الزنجبيل..

خمسون خريفاً تستقبلني زقزقة الأطفال.. ضحكاتهم.. عيونهم  
التي تتسع براءة وفرحاً بلقاء الأتراب.. يوم من المرح وآخر، ثم يبدأ  
فصل الجدّ.. بداية الحرث والزرع.. ثم سباق وأمل وترقّب..

ما أجملك أيّها الخريف! وما أقسى قلبك!.. إنك بهجة اللقاء  
واغتيال لفسحة الصيف!..

خمسون خريفا مرّت سحابة صيف شاردة، لكن ثلاثة خرائف  
منها حاضرة أبداً.. محفورة على جدار الذاكرة.

الخريف الأوّل عام /١٩٥٣/ عندما ألبستني أمي- رحمها الله-  
صدرية المدرسة السوداء الجديدة، وخرجت مع أخي الأكبر إلى  
الأزقة التي ازدانت بالأطفال والضحكات..

لحظات من سعادة طفوليّة غامرة لا أنساها.. حلم سنوات  
سيتحقّق.. سأدخل المدرسة، وسيكون لي محفظة وأقلام وألوان  
كإخوتي الكبار.

يومي الأوّل في مدرسة العرفان الابتدائية كان مزيجاً من  
المفاجآت، فُصّلْتُ عن أخي، وأُدخلتُ قاعة حبيسة، غصّت بأطفال في  
مثل سنّي، وضاقّت بهم الأنفاس الحارّة.

عصا من الخيزران في يد معلّم طويل أصلع، يلوّح بها، تُرعد  
غضباً وتهديداً، ثم يهوي بها على مقعد أمامه، فينتفض الجميع ذعراً،  
وعيناه الزرقاوان تتسعان بلا حدود، علمت فيما بعد أنّه متخصص  
بتعليم الصفّ الأوّل منذ أربعين عاماً، وقد أثّرت معاشرته أطفال  
الصفّ الأوّل على اتزانهم، انكشيت في مقعدي الذي انتظم خمسة  
أطفال خائفاً متكثفاً كما طلب المعلّم، غابت الفرحة.. مات الحلم..  
تشوّهت الصورة الكرنفالية التي رسمها خيالي للمدرسة، ولكن لكلّ

امري من دهره ما تعود، فقد بدأت مع الأيام أعتاد الجو الجديد..  
النظام والعصا والجلوس ساعات على مقعد خشبي يئن مع كل حركة  
من حركاتنا.. وما أكثرها!

تتلاشى صورة ذلك الخريف، ثم تعود باهتة متباعدة، لكنها لا  
تنمحي..

الخريف الثاني عام /١٩٦٧/ تخرّجنا في دار المعلمين،  
وانطلقنا نجوماً إلى القرى القريبة والبعيدة المتناثرة حول مدينتنا،  
أنزلتنا السيّارة عند قرية (أم حوش) قرب ناحية (مارع)، قال زميلي  
المعلم القديم في المدرسة: علينا أن نقطع عشرة كيلو مترات سيراً  
على الأقدام، كان الطريق ترابياً، انبسط أمامنا سهل (مرج دابق)  
خضرة وجمالاً، انحدرنا في الطرق الزراعية الملتوية، سرت كأنني  
أسبح فوق الغيوم.. رنتاي تنتشيان من روائح أرضنا السحر.. عيناى  
تشربان بهجة الضحى.. عالم جديد أسر..

وصلنا القرية دون أن أشعر بالتعب، فقد كنت أفقر سعادة لا  
سيراً على الأرض.. العيون السود اللامعة كانت بانتظارنا.. عيون  
الطلاب الممتلئة بالفضول اتّجهت نحوي، فأنا المعلم الجديد، ابتسمت  
لها..

كنا معلمين وحيدين، اقتسمنا الصفوف الستة، دخلت إحدى  
الغرفتين اللتين تتألف منهما المدرسة، كانت مبنية من الطين، وتفتح  
على الفضاء من خلال نافذة صغيرة وحيدة.

حدّقتُ فيَّ العيون السود التي تنتظر منّي أن أبدأ.. وبدأت.

كان عام النكسة، وجرحها ما يزال ينزف، حملنا معنا كبرياء الشباب المطعون، وانتشرنا في القرى مصمّمين على أن نجعل من جيل الهزيمة.. من هذه العيون الثاقبة سهاماً من لهب.. من هذه الغراس الفتية خيولاً تمتطي الريح والشهب..

وقد تحقّق لأكثرنا بعض ما أراد، فقد نجح طلابي جميعهم في آخر شهادة للمرحلة الابتدائية عام ١٩٦٨/- وبعدها ألغيت الشهادة- أقول وأؤكّد نجح جميع طلابي، رغم أنني أدرّس ثلاثة صفوف معاً، ورغم البرد والطين والأسقف التي تكّف، والمياه التي تحاصر قريتنا (تلمالد)- وقد حدث في ذلك العام فيضان نهر قويق المشهور- فنعيش أسابيع في جزيرة في المحيط معزولة عن العالم، لكن مكافأتي كانت توبيخاً وحسماً من راتبي الشهري، بسبب غيابي عن المدرسة مرّتين، لمراجعة مديريّة التربية دون أن أخذ أذنأ مسبقاً، وعندما راجعت مفتش المنطقة- كما كان يُسمى آنذاك- والذي اقترح تلك العقوبة، وأطلعته على سبب الغياب وعلى النتائج التي حقّقناها في تلك الظروف وبإمكاناتنا المتواضعة، أجابني بلهجة مسؤول جديد: أنت تقوم بواجبك، ونحن نقوم بواجبنا!!

كانت صورة ذلك الخريف أوضح من خريفي الأوّل، كانت مفرحة موجعة معاً، تغيب وتعود، لكنها لا تبرح الذاكرة.

الخريف الثالث عام /٢٠٠٤/ عندما أقلت الريح بمركبي فوق شاطئ، كنت أحلم طوال أربعين عاماً أن أجده أخضر هادئاً، أريح فوقه جسدي المكدود، وأنزوي في ركن صامت، أقرأ ما كنت قد أجلت قراءته، إن امتد بي العمر، فإذا بالمعركة الحقيقية تبدأ منذ أن وطئت قدمي رمال الشاطئ، واستلمت قرار الاستقالة.

انطلقت أحمل سنواتي التي شارفت على الستين، المكلفة بهالة من الشعر الأبيض- رحم الله خافية الغراب الأسحم- وجملة من أمراض المهنة، أخفها ألم المفاصل، وإضبارة معاملة التقاعد التي تكبر كل يوم وتتفخ، كهوم المواطن العربي، وعندما انتهت بعد ستة أشهر، ونظرت إلى سمكها وعدد أوراقها والوثائق والتوقعات والإحالات والأختام، شعرت لأول مرة في حياتي بأنني إنسان مهم في هذا الوطن.. أكلّ هذه الأوراق من أجلي..؟؟!!.. عجباً.

لكنني لا أنسى الوجوه المقطبة، أو عبارة "تعال بعد أسبوع" مع كل وثيقة حصلت عليها من موظف، أو توقيع من إنسان مهم.. وما أكثر المهمين في دوائرننا.

أظنّ أن ذكريات هذا الخريف الهرم ستبقى أوضح على صفحات الذاكرة، لكنني أتني ألا يكون هناك ذكريات أخرى لخريف آخر قادم، فيكفيني ما غصت به الذاكرة من صور وأحداث في سنواتي الطويلة الحبلى بالأشجان في عالم الحرف وساحات الكلمة.

## الانتصار الكبير

قال مدرّس الرياضة: ستقام اليوم المباراة المنتظرة بكرة اليد، بين فريق مدرستنا وفريق مدرسة الوئام، إنها قضية كرامة يا شباب أريدكم أسوداً في الملعب، ترفعون رأس مدرستنا إلى القمم، فمن يودّ اللعب والمشاركة في هذه المباراة الحاسمة، فليحضّر بعد الظهر إلى الملعب المركزي بلباس الرياضة.

توافد طلاب مدرستنا، وكل واحد يرتدي ما وجد من لباس للعب، فكنا حديقة من الألوان والأشكال، ونزل فريق مدرسة الوئام إلى الملعب موحدّ الثياب، اصطفّ أفراداه بانتظام.

كنا قد أحضرنا طبعلاً كبيراً، يقرع معلناً فوزنا قبل أن تبدأ المباراة، كان الجميع يرقصون على الإيقاع الحماسي، مع الأناشيد والزغاريد، وكان بعض الطلاب يرفعون شعارات الإكبار والتعظيم لفريقنا العظيم، ويطلقون هتافات النصر، ويستهزئون بخصومنا الضعفاء، ويمجدون مدرّس الرياضة الذي قلّمنا وجود الزمان بمثله.

جاء مدرّسنا متأخراً متسارع الأنفاس، يرفع بين الحين والحين بنطاله المتمرّد على كرشه المتدليّة، قال لنا: ألم تنظّموا أنفسكم بعد؟!، نظر إليّ، كنت الأطول بين رفاقي، قال لي: أنت قلب الهجوم، أحسست بأني أتوجّ ملكاً على الشرق، وقفت بقامتي المديدة، أستعدّ للتحديّ، ووزع أعضاء الفريق بحسب الحجم والطول، ثم قال: من



يقف حارساً للمرمى؟ أريده رشيقياً نبيهاً، ثم اختار طالباً طويلاً نحيلاً لحراسة مرمانا.

صفر الحكم، وبدأ اللعب، لكن أيّ لعب؟! كان كل واحد من فريقنا يتحرك داخل الملعب ماداً يديه كمن عُصبت عيناه، يلاحق الكرة دون أن يلمسها، أمّا أفراد الفريق الآخر، فكانوا يتنقلون بيننا بخفة الفراشات، ويترجعون بسرعة الخفافيش، يتقدمون، ويتداخلون بيننا، وينتهكون حرّمات مرمانا، ونحن ندور وراءهم لاهثين، لم نتجاوز مرّة واحدة نصف الملعب إلى أرض الخصم، كانت المباراة تجري فوق أرضنا فقط، ومدربنا يصيح، ولا ندري لماذا يصيح!

استلمت الكرة بعد أن سجّلوا علينا الهدف العشرين، واندفعت لأصل أوّل مرة إلى مرمى الأعداء، ورميت الكرة، كان الحارس الذي لم يتحرك منذ أوّل المباراة- وأظنه قد أخذ غفوة ليست بالقصيرة- قد فوجئ بهجومي المباغت، وسجّل الهدف اليتيم العظيم، ضجّ الملعب، وتعالّت الهتافات، وحملت على الأكتاف قبل أن تنتهي المباراة، وارتفعت في الجو، وغبت في مراقي المجد.

في اليوم التالي كانت مدرستنا في عرس بهيج، مزدانة بالأعلام، يقرع فيها طبل كبير ألحان الانتصار الكبير.

قلّدتني المدير وسام الشرف لهذه المدرسة التي رفعت رأسها إلى الذرا، بعد أن أرغمت أنف الأعداء، وسجّل اسمي في سجل الخالدين.

## قف وارفع يديك

من يعرف الشاعر الكبير سليمان العيسى عن قرب، يعرف رهافة حسّه ورقّة شعوره ورقبّه في تعامله مع طلابه وغير طلابه، درّسنا في دار المعلمين بحلب في ستينيات القرن الماضي، أقول إنه رجل لم يُخلق لهذا العصر، لا أذكر أنه رفع صوته في الصفّ، ولو مرّة واحدة أو تقوّه بلفظ يجرح إحساس أحد، كان تعامله معنا شعرياً، إن صحّ التعبير، لكنّ ثورة مكتومة تضطرم في أعماقه كالبركان الصامت، نحسّ غليانها في روحه من زفير الكلمات التي تفلت أحياناً من لسانه، معبراً عن ألمه من واقع أمّتنا، متحرّقاً شوقاً إلى إعادة مجدها الأثيل.

كنا نطلب منه أحياناً أن يُسمعنا بعضاً من أشعاره- وأكثرها في القومية والعروبة- فكان يبتسم ويقول متواضعاً: أنا لست شاعراً.

قصيدة (قرأتُ مجدك) للشاعر سعيد عقل ليست مقرّرة في منهاجنا الدراسيّ، شرح لنا الأستاذ سليمان القصيدة، وبين جوانب الإبداع والسموّ في أفكارها وأسلوبها والمشاعر التي تمور في ثناياها، ثم أوضح لنا أن الفنّ الأصيل هو ما تعانقت فيه الكلمة أيّ الشعر مع الصوت والموسيقا، وقد توفّرت هذه العناصر الثلاثة في هذه القصيدة التي غنّتها كما يقال (سفيرتنا إلى القمر)، فالشعر الجميل لسعيد عقل، والصوت اللؤلئيّ لفيروز- وكان أستاذنا يعبد صوتها- والموسيقا المتميّزة للأخوين رحباني.

في اليوم التالي أحضر أستاذنا معه جهاز نقل الصوت (بيك أب) وأسطوانة لهذه الأغنية الخالدة، بدأ التشغيل، وانسابت الألحان وتبعها الصوت المخملي، فوقف أستاذنا صامتا لا يريم كمن يقف في الصلاة، يضمّ يديه إلى أسفل بطنه، لا يطرف جفنه، حتى خلنا أنه لا يتنفس، إنه في محراب الفن، وكما يقول أستاذنا ويردّد (الفنّ قدسيّته)، همس أحد الطلاب المتزمتين في أذني قائلا: أترأه يقف في الصلاة بمثل هذا الخشوع؟!، كدنا أن نسكر من رحيق هذه الأغنية التي طارت بنا إلى عوالم الفن الصافي.

فجأة فُتِح باب الصف، اقتحمه مدير الدار، ومن ورائه ثلّة من المراقبين- كما كانوا يُسمّون- وغيرهم من الأتباع الذين لا يسير المدير من دونهم، صاح بنا: "قفوا وارفعوا أيديكم إلى الأعلى فوراً، ولا يأت أحد منكم بأيّ حركة" من دون أن يلتفت إلى الأستاذ سليمان العيسى، أو يعتذر منه، أو يستسمحه بالدخول، فخرج الأستاذ من الصف ينتظر وراء الباب أما نحن فقد اعتدنا على هذه المفاجآت الحضارية، بدأت الثلّة المرافقة للمدير بتفتيش الطلاب وتفتيش حقائبهم مدّعين أنهم يبحثون عن علب الدخان التي يحملها الطلاب، لكنهم في الحقيقة كانوا يبحثون عن أشياء أخرى، ووقف المدير أمامنا يراقب، وهو يركز يديه على خاصرتيه، ويباعد ما بين ساقيه- كما كان يفعل موسوليني عندما يقف أمام الملايين- ويرسل إلينا من عينيه نظرات نارية مُتَّهمة، وكأنا نحن الذين اغتلتنا بالأمس عدنان المالكي، وما نزال نحتفظ بألة القتل، ضبطوا عدة علب دخان، ولا نعرف ماذا فعلوا بها!، ثم خرج المدير، وتبعه موكبه المهيب، وأغلقوا الباب،

بدأنا نسمع من الخارج حواراً متوتراً بين شخصين، الأول بصوت جَهْوَريٍّ أجشٍّ، والآخر بصوت ناعم لكنّه جريح. دخل الأستاذ سليمان العيسى، وغمامة من غضب مرّ تغشّي كلّ جارحة من جوارحه، وقف دقائق صامتاً، يمضغ هزيمته أماناً، ثم قال عبارة واحدة بصوت يقطر أسى: "يا أبنائي: لا أظنّ أنّ مستقبل أمتنا العربية بخير" ثم حمل جهاز نقل الصوت وخرج.

## العاصفة

أنزلتني السيارة قريباً من قرية (أم حوش)، وتابعتُ طريقها إلى ناحية (مارع)، عليّ أن أقطع سبعة كيلو مترات إلى قرية (تلمالد) مشياً على الأقدام على طريق زراعي، الأرض مفروشة بغلالاة بيضاء، وكرات الثلج الصغيرة تتطاير مبعثرة في الفضاء، كنت مُحصّناً حيال البرد، لا يظهر مني سوى عينيّ، الرؤية واضحة، والمشهد رومانسي جميل، حتى إنني أستطيع أن أرى ناحية (مارع) تلبس رداء من الثلج، وتعم على بعد عشرة كيلومترات فوق سهل (مرج دابق) الناصع البياض، راح لساني يردّد أبيات قصيدة رشيد أيّوب:

يا ثلج قد هيّجت أشجاني      ذكّرتني أهلي وأوطاني

بعد ربع ساعة بدأت كرات الثلج تكبر. ثم أخذ يتجمّع بعضها مع بعض كستائر حريريّة تتراقص مع حركة الريح، أسرع الخطا حتى أصل القرية قبل أن تشتدّ الريح وتقلب إلى عاصفة، وحقيبتني الثقيلة التي تضم ملابسني والأطعمة التي تُعدّها أمي كلّ أسبوع معلقة على كتفي، قليلاً فإذا هي نُذّر العاصفة، بدأت أمواج الثلج تدور، واختفت المرئيات أمامي، كان الطريق خالياً من المارين والجرارات الزراعية، انتابني شعور بالخوف، فمن المتعارف عليه في الموروث الشعبي في هذه المنطقة، أن الضبع تنشط وسط الثلج، خصوصاً كما يقول هنا أبناء القرى: إنّ الضباع تأتي في مثل هذه الأجواء من جبال

(طوروس) التي لا تبعد كثيراً عن هذه المنطقة، مهما يكن المرء متوازناً وشجاعاً وعقلانياً فلا بد أن تساوره الهواجس في هذا الطقس الموحش، اندفعت بغريزة حبّ النجاة أركض ما استطعت، أخط في واحات الماء والطين، وحقيبتني الثقيلة تقفز على جنبي بفضاظة، كان كرات الثلج تتجمع على عيني، فأزيلها بيدي وأتابع، وسط الطريق عند جسر (السمّوقة) على نهر قويق قرية صغيرة، تنتثر بيوتها على بعد مئة متر على يمين الطريق، طالما زرتها في أمسيات الخريف الحلوة مع أبناء قريتنا، أهلها طيبون، أحبيهم عندما أمرّ بهم أثناء ذهابي وإيابي، وهم يعملون في حقولهم.

وصلت الجسر فقلت جاء الفرّج، سألتجئ إلى مضافة المختار التي لا تغلق أبوابها، اقتربت من القرية مبهور الأنفاس، والتعب قد نال مني، قطع من الكلاب خرج من كل بيوت القرية لاستقبالي، الكلاب في هذا الأجواء تنشط بشكل غريب، وتثيرها أية حركة وسط الظلام أو الثلج، التفت حولي، وهي تنبح بشدة، تشرع أفواهها بتحدّ، وبدأ بعضها يهاجمني بشراسة، بطبعي لا أخاف من الكلاب، وزادني جرأة عليها الاقتراب منها في قريتنا (تلمالد) وتعلّم طباعها، فقد عسكر أمام بيتنا في القرية كلب كبير، كنا نقدم له ما يفضل من الطعام، فإذا جلس المرء القرفصاء فإن الكلب يتراجع، أو إذا ألقمه حجراً أو هاجمه فإنه يهرب، جربت أن أجلس القرفصاء فازدادت ضراوة، لوّحت بحقيبتني الثقيلة لأخيفها، فأفلتت من يدي دون جدوى، رحّت أجمع كرات الثلج لأضربها بها بدل الحجر لعلها تخاف، لكن طريقي لم تُجدِ نفعاً، شعرت باليأس والهزيمة، فأينما التفت أفواه

غاضبة وأنياب حاسرة ونباح شرس، اقترب مني كلب كبير، ركفته برجلي، فعضّ حذائي المطاطي (الجزمة)، سحبت رجلي بقوة من بين أنيابه، فتمزّقت مقدّمة الحذاء، يا الله ماذا أفعل في هذه المحنة! هل أقضي ضحية بين أنياب الكلاب! أحسست بدوار من كثرة الالتفات وردّ الهجمات، وكدت أن أسقط على الأرض عجزاً وإعياءً، قلت قي نفسي: علي أن أصمد وأقاوم مهما اشتدت المواجهة، أزلت الثلج المتراكم عن وجهي، بعد أن انحسرت لقاحة الصوف وسقطت على الأرض من كثرة الالتفات والدوران، وتابعت الكرّ والفرّ مع هذا القطيع المتتمرّ.

نباح الكلاب غير العادي نبّه أبناء القرية إلى أنّ أمراً خطيراً دعا الكلاب إلى التجمع والنباح بشكل جماعي، خرج بعضهم يصيح دون أن يتقدّم: من هناالك؟ من هناالك؟ هاهو قارب النجاة، انطلقت أصيح بكل ما في صوتي من قوّة: أنا الأستاذ بساااام.. أنا الأستاذ بساااام، عاد يصيح وأنا أصيح.

جلست في مضافة المختار جانب مدفأة الحطب أحتسي الشاي، والجميع يهتئونني بالسلامة، ويلومونني على مغامرتي هذه، ويقولون: نحن أبناء المنطقة نخاف من الخروج في هذا الطقس، فكنت أردد عليهم:

وماذا كان عليّ أن أفعل! أشكرُ الله أنّ المعركة كانت مع الكلاب، ولم تكن مع الضباع، وإلا كانت النهاية.

## تدور أو لا تدور

كلّ متعلّم يذهب إلى القرى – وبخاصّة المعلّمون – لا بدّ له من أن يتعرّض للسؤال حول كروية الأرض ودورانها أو يدخل في حوار وسجال عقيمين حول ذلك، وكأنّ أبناء الريف يتفكّهون بهذا السؤال والسجال، وفي زعمهم أنّهم يُفحِمون بذلك السؤال المعلّم أو المتقف، لعجزه عن تقديم دليل حسيّ دامغ على كروية الأرض ودورانها.

أحضرتُ إلى الصف بطيخة خضراء تمثّل الأرض، وبطيخة صفراء تمثّل الشمس – فالبطيخ يُزرع بكثرة في تلك المنطقة التي درّست فيها منذ نصف قرن (سهل مرج دابق)–، وضعتُهما على الطاولة والبطيخة الصفراء من جهة النافذة حيث يتدفق الضياء، وأخذتُ أدورّ البطيخة الخضراء بعكس اتجاه عقارب الساعة، لأمثّل للطلاب تعاقب الليل النهار بتأثير أشعة الشمس التي أمثلها بالبطيخة الصفراء، وأظنّ أنّ الطلاب قد اقتنعوا إلى حدّ كبير بهذه الحقيقة العلميّة.

في المساء كانت غرفة المختار تغصّ برجال القرية، ينتظرون قدومي شبّة اليوميّ، قال أحدهم، وهو رجل وقور ذو لحية بيضاء: يا أستاذ ما تزلون تعلّمون أولادنا أشياء تنافي الدين، أدركتُ أنّنا بدأنا الجدل والسجال، كان بعض فلاحي القرية – كما علمت ومنهم هذا الوقور – قد وقفوا في النهار وراء نافذة غرفة الصفّ – فالمدرسة غرفتان من الطين في العراء جانب مقبرة القرية – يسترقون السمع



عندما كنت أشرح كروية الأرض ودورانها حول نفسها، فالفلاحون في بطالة مقتنعة أكثر أيام العام، ولا عمل لهم إلا التثاؤب وتزجية الوقت بتوافه الأمور، فراحوا ينتصتون لما أقول في الصف دون أن يشعروني بوجودهم. ثم وقف الرجل الوقور، خلع عمامته وعباءته، ووقف وسط الغرفة، وقال لي: انظر يا أستاذ عند قدمي، ثم وثب إلى الأعلى، وثنى ركبتيه ليبعد أكثر ما يمكن عن الأرض، ثم نزل في مكان وقوفه الأول، وقال لي: إذا كانت الأرض تمشي وتدور مثل (قشاط الماتور)، فلماذا لم تمش من تحتي وأنا في الهواء، ونزلت في نفس المكان الذي كنت واقفا فيه قبل أن أقفز؟! اتجهت العيون نحوي بفرح، تنتظر ردي وترشقتني بسهام الانتصار.

قفزت إلى ذاكرتي على الفور صورة (كوبر نيكوس) الذي أصر على كروية الأرض ودورانها، وهو أمام جبل المشنقة، لكن عقليّة العصور الوسطى في أوروبا وقتذاك أبت إلا إعدامه متذرة بهرطته وخروجه على تعاليم الكنيسة، فانتابني شعور بالقلق وربما بالخوف من هذه العيون حولي المحدقة المتسائلة.

كان الرجل الوقور محققاً حسب تصوراته وفهمه الساذج لطبيعة الأرض وأجرام السماء، ولو كان يعلم أن الأرض تدور بما يقرب من /٥٠٠/ متر في الثانية، وأنه لو انفلت حقاً من جاذبيتها وسرعة دورانها لكان قد اخترق جسده جدار الغرفة، وارتمى خارج القرية، لو كان يعلم ذلك لكان دليلاً مفحماً وحجته أقوى، ولكن كيف أشرح له قانون الجاذبية والسرعة.

العقل عندما يتعرّض للتحدي، أو يقع في مأزق ما ، يبدع، ويأتي بما لم يكن متوقّعا منه، كنت أنظر إلى الحاضرين، ودماعي يستنفر قواه للردّ على هذه العيون التي تتهمني بالعجز وربّما بالضلال، كان الوصول إلى القرية بواسطة القطار أو السيّارة، قفزت الفكرة إلى رأسي، وصاح دماغي: وجدّتها.. وجدّتها.. كما صاح أرخميدس قبل ألفي عام: وجدتها.. وجدتها..، قلت للرجل الوقور: عندما يكون القطار مسرعا، وذبابة تطير داخله من مكان إلى آخر، لماذا لا ترجع هذه الذبابة إلى الوراء، نراها تطير وكأنّ القطار واقف، ثم إذا صببنا قليلاً من الماء على أرض القطار المسرع، هل تنزل قطرات الماء في حوض من يجلس أمامنا بشكل معاكس لسير القطار؟!، ومثّلت له العملية بكلتا يدي، وتابعت: هذا يا سيدي الفاضل ما يسمى بقانون الجاذبيّة في الطبيعة، الأجسام الكبيرة تجذب إليها الأجسام الأصغر منها، تماما مثلما تجذب قطعة (البولاد) المنغناطيس الكبيرة المساميرَ وبرادة الحديد الأصغر منها، وأنا وأنت من هذه الأجسام الصغيرة التي تنجذب إلى الأرض.

وجدتُ هنا أنّ العيون حولي بدأت تسبح في متاهات الألفاظ، ربّما لأنّ أكثر الحاضرين بسطاء، لم ينالوا أي حظّ من الدراسة والتعليم، فلم يفهموا معنى الجاذبية، أو أنّ المثال الذي ضربته جاء من واقع حياتهم، يلمسونه كلّما ركبوا القطار، فأخذوا يفكّرون فيما قلت.

نهض الرجل الوقور غاضباً ، وهو يقول: صرنا في نظرك  
الآن ذباباً ومسامير وبراة حديد!! اللهم أبعد عنا الغفلة والغافلين،  
ونجنا من الضلال، وقصد الباب وانصرف.

## والرجال قوامون ....

أربع سنوات حلوة مرّة أمضيها في دار المعلمين بحلب، بداية الشباب وسنّ التفتح على الحياة، انطلقنا بعدها إلى القرى لنبدأ رسالتنا المقدّسة عام /١٩٦٧/ وصادف ذلك عام النكسة، فازدادت نفوسنا حماسة وشوقاً إلى تأدية الرسالة، وصلنا إلى قرى ما تزال تغفو في أحضان العصر الحجري، قريتي التي عُيّنْتُ فيها تقع وسط سهل (مرج دابق) شرق ناحية (مارع)، لا يزيد عدد سكانها على أربعمئة إنسان، لم أجد في القرية من أثر الحضارة إلا الطين أَرْضاً وبيوتاً وأسقفاً، قرية نسيها الزمن فغفت على صمت الجهل والخرافة، تجتَرّ قصص الجنّ والضباع وبطولات الأمير (عيّاض)، لم يصلها الماء ولا الكهرباء، ولم تُعبّد الطرق إليها، ليس فيها من معطيات المدنيّة إلا المدرسة الطينيّة، لقد زدونا في دار المعلمين بأخر نظريات التربية، وأحدث طرائق التعليم، ثم ألقونا وسط بحر من الجهل في هذه القرى الطينيّة، لنطبق فلسفات (جون ديوي) وتجارب (مَنْتِسُوري) في التربية، ونُتبع طرائق (المشروعات) و(المجموعات) .. في التعليم بدل الطرائق التقليدية الإلقائية العقيمة، ولنستعمل مثلاً الفانوس السحري وجهاز الإسقاط في قرية لم تسمع باسم الكهرباء، ولكن لا بأس، فقد صمّمنا وحملنا الأمانة.

كانت المدرسة مخصّصة لتعليم الذكور فقط أردنا أنا وزميلي المعلم (سعيد الحوت) أن نقوم بمبادرة لتعليم الإناث في القرية طوعاً دون مقابل، عبء فوق عبء، بدأنا بخطوات مدروسة فأخذنا موافقة

شيخ القرية وإمام المسجد فيها، الشيخ (شحادة)، وقد شجعنا الرجل، وأبدى استعداداه لمساعدتنا في خطوتنا الجريئة هذه، ودعّمنا موقفنا بتأييد المختار ووجهاء القرية لهذه المبادرة، أعلنّا: "تعلن إدارة المدرسة عن قبول الطالبات في المدرسة من سنّ السادسة وحتى سنّ الثامنة فقط - (فقد حدّدنا السنّ خوفاً من القيل والقال) - دون شروط ودون أوراق ثبوتية ودون لباس مدرسيّ، وتؤمن لكل طالبة مستلزمات الدراسة مجاناً"، ولتشجيع المتزمتين والمتعصّبين اشترطنا أن تجلس الطالبة إلى جانب أخيها الكبير في الصفّ.

انتظرنا يوم السبت صباحاً قدوم طابنا والطالبات الجديّدات، ولكن "لقد أسمعت لو ناديت حياً" فلم تحضر أيّة فتاة على الإطلاق، لم يحضر سوى طابنا الذكور فقط.

في تلك البيئة وفي ذلك الزمن كان موقع المرأة وبخاصّة في الريف في آخر السّلم الاجتماعيّ، فوقية الرجل الطاغية تسحق المرأة بمفاهيم، لم تنحدر إليها عقلية الرجل في العصر الجاهليّ، اللهمّ عدا وأد البنات، والرجل هنا في رأبي لم يمارس الوأد إلا لاستعباد المرأة، وتسخيرها في كل عمل شاق.

كانت محطة القطار تبعد عن القرية مسيرة ربع ساعة، بعد أيام من وصولنا إلى القرية شاهدتُ شاباً في العشرين من عمره، سقاه الريف القوة والعافية، يسير منتفخاً كطاووس يفرش ذيله، وخلفه فتاة، لم تبلغ الخامسة عشرة، تسير متعثرة على الطريق الزراع، وعلى رأسها صندوق يعجز عن حمله أعتى الرجال، رقبة المسكينة ملوية،

تكاد – كما يقال – أن تنكسر، سألت سِرّاً: هل هذه خادمة عند ذلك البطل العتيدي؟! علمت أنه من العار عندهم أن يعمل الرجل، فهذه أخت الشاب، أخبرها بأنه سيأتي من المدينة بالقطار، فذهبت إلى المحطة تنتظره، عندما وصل، حملت أخته الصندوق، وسار أمامها مزهواً بفتوته.

لم أعد بعد ذلك أستغرب رؤية النساء في الحقول، وهنّ يقمن بكلّ أعمال الزراعة، عدا الحراثة، فهي من اختصاص الرجال لأنّها تحتاج إلى قوّة لا تتوفر لدى النساء، ولو كان باستطاعة المرأة أن تقوم بالحراثة، لأوكلتُ إليها المهمّة أيضاً، أرى الرجل متكئاً في غرفة المختار طوال النهار وجزءاً من الليل، يروي الحكايات، ويسمع الخرافات، يشرب الشاي ويدخّن، وزوجته في الحقل تصارع الأرض، رأيت مرّة في الشتاء امرأة حبلى تحمل على رأسها برميل ماء، ملأته من البئر البعيدة، تدبّ في الوحول حافية القدمين، تحمل على صدرها ولداً، وفي بطنها ولد، ويجر ذيل ثوبها ولد ثالث، مشهد محزن، سألت مساءً الرجال في غرفة المختار: لماذا لا ينقل الرجل الماء بدل زوجته؟، يَكفيها العمل في البيت والحقل! استغرب القوم رأيي، وقالوا: الرجل يحمل الماء بدل زوجته؟! عيب يا أستاذ هذا عمل النساء!، ثم ضحك أحدهم وقال مماًزحاً: تخيل يا أستاذ أبو رمضان – مشيراً إلى جاره – وهو يحمل على رأسه برميل الماء فوق الشملة والعقال؟! فضحك الجميع، قال أحدهم يفخر بما فعله أبوه: يا أستاذ، أبوي الله يرحمه مرّة ضرب أمي بالمِطْرَق (عصا غليظة) فكسر إصبعها، أبوي يا أستاذ كان (زلمة)، ثم علمت أنّ هذا الراوي

الشهم الذي يقصّ مآثر أبيه لم يوافق على زواج أخته إلا بعد أن تنازلت له عن حصّتها من الأرض التي ورثوها عن أبيهم، ففي مفهومهم أن المرأة ستأخذ المال إلى رجل غريب، لذلك تُحرّم من الميراث.

حضرتُ عرساً ورقصت مع الراقصين في حلقة الدبكة على صوت الطبل ونواح (الزّناية) المزمار، والغريب أن الشباب والصبايا يرقصون كتفاً إلى كتف معقودي الأيدي رغم تزمت أهل القرية، كان العرس عُريس، وهو ما يُسمى عندهم (البديلة) أي كل شاب يتزوج أخت الآخر، انفضّ الحفل، لكن سمعتُ بعدها هرجاً ومرجاً وصخباً ولولة تمزق هدوء الليل، في الصباح أخبرني أحد طلابي الكبار أن أحد العريسين - وتنفيذاً لوصية الحكماء الذين سبقوه إلى قفص الزوجية، "أن يقطع رأس القطّ من ليلة العرس" أي يُري عروسه الغريرة قسوته ورجولته من أول لحظة، فتبقى طوال عمرها خاضعة له، تخافه وتأتمر بأمره - تحيّن فرصة استدارت عروسه إلى أمر ما، فهوى بيده الرفيقة على مؤخرة رأسها، فسقطت المسكينة على الأرض فاقدة الوعي، وعندما عجز عن إيقاظها خرج يطلب مساعدة أمه، فسرى الخبر سريعاً، ووصل إلى العريس الثاني - أن أخته قد قُتلت، قتلها زوجها - فثار كالمجنون، وحمل المطرّق (عصا غليظة) وراح يهوي به على عروسه البريئة بعد أن قفل الباب حتّى لا يدخل أحد، وينقذها قبل أن يقضي عليها ويأخذ بثأر أخته، فعَلتِ الولولاتُ في كلا البيتين بدل الزغاريد، وهكذا كانت أجمل ليالي العمر كلّها تمرّ متأوّهة متوجّعة في هذه القرية الحزينة!!

والشيء بالشيء يُذكر، كان لهذه العادة آثار في مدينتنا حلب، ولكن أخفّ منها قليلاً، فيقال: من سبق من العروسين وداس قدم الآخر أولاً فإنه يتفوّق عليه طوال حياته، وتكون له الكلمة العليا في البيت، يُروى أنّ أحدهم ما إن وصل أمام عروسه حتى وطئ بقدمه الرشيقَة التي تشبه حُفّ الجَمَل أصابع رجلها الناعمة، فسوّاها بالحذاء، ونقلت على أثرها إلى المشفى.

أحد فلاحي القرية زوّج ابنه بفتاة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، وبعد عام طُلِّقت، سألته عن سبب الطلاق فقال بشيء من الازدراء: (ما بيها ضنى) أي عاقر، قلت له: يا رجل، إنها صغيرة، وجسمها وأعضاؤها لم تنضج بعد، ردّ بثقة: اللي قدّها صار عندهن ثلاثة أولاد!! وابني صار عمره ١٨/ سنة ومشتهي يشوف ضناه، وأنا مشتهي أشوفهن أكثر منه، حاورته وداورته، لكنني كنت أحاور الجدار، فأين الاتحاد النسائي الذي اتّخذ مقرّه في حيّ العزيزية الراقي أمام كنيسة اللاتين، سيارات وأبّهة واجتماعات وندوات.

ومقابلات على التلفاز، ألا يهمّ مثل هذا الأمر أعضاء المناصرين للمرأة؟!

لولا وجود المدرسة لكانت القرية تنتسب إلى قبائل (الأسكمو)، أو بعد جزيرة في أعماق المحيط، فهي وغيرها من القرى لا تعرف من انتمائها إلى المدنيّة أو الدولة المركزيّة إلا رجال الشرطة، يأتون إليها لأكل الخراف وأخذ الدجاج والسمن، ويغادرون وهم يَلُوحون بالسياط.



في ربيع ذلك العام الدراسي /١٩٦٧- ١٩٦٨/ فاض نهر (قويق) الذي يمرّ بجانب القرية، وغمر الأراضي وطوّق القرى، فأصبحت كجزر عائمة وسط المحيط، ومنها قرينتنا، والدولة لا شان لها بذلك، فهي لا يهّمها إلاّ شراء المحاصيل بالأسعار التي تحدّدها هي، وأخذ الضرائب من الفلاحين، كنت في المدرسة أقوم بمهمة المدير والمعلّم والمستخدم والممرّض، في المدرسة صيدليّة صغيرة جداً للإسعافات الأوّليّة، تحوي ضمادات وبعض الحبوب للأمراض الخفيفة، يأتي أبناء القرية إلى المدرسة لتضميد جروحهم أو للاستشارة وأخذ بعض الأدوية البسيطة، كحبوب لآلام الرأس أو البطن.

وسط حصار الماء جاءني صاحب بقاليّة القرية، وأذكر أن اسمه (حمّد) بابنته الصغيرة وقد شجّ رأسها بالمجرفة عندما كانت بجانب أختها الكبيرة التي تفتح أهدوداً لتصريف المياه المتدفقة، كان الدم يسربل وجهها، ويصبغ ثيابها، منظر مريع بالنسبة إليّ على الأقلّ، كان عظم الجمجمة ظاهراً، قلت له: لا أستطيع أن أفعل شيئاً، الجرح كبير، لا يضمّد إلاّ في المشفى، ردّ حائراً يائساً: وأين المشفى يا أستاذ؟! اعمل ما تستطيع والباقي على الله .. حقاً فالوصول إلى المدينة وسط هذا الحصار المائي يحتاج إلى علاء الدين كي يُخرج مارده من قمقه، ويحمل البنت وأبيها على ظهره ويطير بهما إلى المدينة. لم أستطع إلاّ تطهير الجرح، ولفّه بالضماد بأقصى ما أستطيع من العناية والدقّة، ولا تسل بعدها عن الالتهابات والمضاعفات.

قرأت مرّة خيراً، أنّ الثلج تكاثف في لندن وحولها وانقطعت طرق المواصلات، اتّصلت أمّ من إحدى ضواحي العاصمة بوزارة الداخليّة، وطلبت تأمين علبة حليب لابنتها الرضيع، فأرسلت طائرة حوامة وسط العواصف الثلجيّة، وأوصلت علبة الحليب إلى الأمّ في البلدة المحاصرة بالثلوج.

جاءني مرة طالب يتألّم ويكاد أن يبكي، قال لي وهو يلفظ الكلمات بصعوبة: يا أستاذ، بلعت شوكة كبيرة أثناء الطعام، ولا أستطيع أن أزدرد لعابي، والشوكة في مؤخره حلقي، نظرت في فمه فإذا بالشوكة – وطولها يقارب السنتمترين – تبدو في أوّل المريء، وتغرس طولياً في مؤخرته، وكما يقال الحاجة أم الاختراع، أتيت بمقصّ، وغلّفت شفرتيه بورق اللصاق (النايلون)، وقلت له: قل آاه طويلة، فارتفعت اللهاة قليلاً، مددت رأس المقصّ بحذر، وأطبقتُ بشفرتيه المغلقتين على الشوكة برفق، وسحبتهما إلى الأعلى بحذر، وأخرجتها، فكانت فرحتي بإنقاذ هذا الطالب أكبر من فرحته بزوال ألمه، وبما أننا ما نزال في أجواء هذه القرية، فوالد البنت الجريحة، كان صاحب البقالية الوحيدة في القرية، وكان كل ثلاثة أو أربعة أيّام يعمل نوعاً من الحلوى تسمى ( المشبّك ) وهي أقراص من العجين، تُقلّى بالزيت، ثم تغمر بالقط ، لونها قرمزي جذّاب، يحبّها أهل القرى، يقول الواحد منهم إذا كان في محنة مكروباً كارهاً كلّ مسرّة "جعد والله ما أشتهي حتّى المشبّك" كناية عن الانصراف عن كل لذة، وعلى رأسها المشبّك، وعندما يعلن (حمد) في النهار أنّه سيصنع هذه الليلة حلوى المشبّك، تبدأ المراهنات، وتتعدّد حلقات لعب النرد وورق

الشدة، ويأكل أفراد القرية الحلوى هانئين سعداء، وربما كانت هذه الحلوى مسرتهم الوحيدة في هذا المنفى، وكان (حمد) يرسل إلينا بين الحين والآخر قرصاً هدية دون مقابل عرفاناً منه بجميل ما فعلت معه فكنت أقول لزميلي الأستاذ سعيد: "من يفعل الخير لا يعدم جوازيه.."

تتوالى الأيام، وكلما مررنا أنا وزملائي بالسيارة بجانب دار المعلمين ونحن في طريقنا عند فجر كل يوم سبت إلى قرانا شمال مدينة حلب، كنت أشير إلى دار المعلمين، وأقول: أربع سنوات عجاف، وأخرى يابسات!.

## الحاجب

كان حاجب مدير التربية يُقفل الباب من الداخل بالمفتاح كلّما دخل غرفة المدير، ويقفله من الخارج كلّما خرج، أمّا سبب ذلك، فلا يعلمه إلا الله والعالمون بالأسرار، عندما شرحت له قصّتي دخل، وخرج متحمّساً:

– تفضّل، المدير أوقف كل المعاملات أمامه، وطلب مقابلتك فوراً!

– نظر المدير إليّ باهتمام، وملامح وجهه تنطق بالاستغراب:

قال متعجباً مستكراً:

أصحيح ما تقول؟!!

يا أستاذ، المعلّمون والمعلّمات في المدرستين نالوا جميعهم الإهانات، وبإمكانكم مقابلتهم، وسؤالهم.

كانت معلّمةً دون حجاب شقراء جميلةً عامرة الصدر، كما يفضّلها أبناء الريف، كنّا ننزل جميعاً من الباص في ناحية (الغطّاسة)، تسير هذه المعلّمة من موقف السيّارات إلى المدرسة بين رفيقاتها بأدب المعلّمة الملتزمة، هناك ثلّة من المراهقين والعاطلين عن العمل – بطالتهم مقنّعة أو دائمة لا أدري – لم يروا طوال حياتهم امرأة شقراء أو حاسرة الرأس دون حجاب، ربّما لأنّهم لم يزوروا المدينة قط، ينتظرون هذه الشقراء في غدوّها ورواحها، يُسمعونها

فاحش الغزل دون أن تلتفت إلى سفاهاتهم، تجرّأ أحدهم، وحاول أن يلمس صدرها، عندما علا صوتها، أسرنا جميعاً نحن – المعلّمين – وتشابكنا معه ومع رفاقه بالأيدي، ثم ابتعدوا هاربين.

قال مدير التربية، وهو يرغي، ويزبد:

سأعرف كيف أتصرّف مع هؤلاء الأوغاد، عدّ أنت وزملاؤك إلى مدارسكم..

في اليوم الثاني كان عدد المراهقين أكبر من المرّة الأولى، سرنا وراء المعلّمت، نحيط بهم كالسور، هاجمونا بالعصي، قاومنا ما استطعنا، ونالوا منّا بعض الضربات.

رحنا نناقش الأمر، أنذهب إلى مخفر (الناحية)، ونقدّم شكوى عليهم، أم نذهب إلى مدير التربية، فهو صاحب كلمة، وله علاقات بالمسؤولين ورجالات الدولة، وكان بالأمس متحمّساً جدّاً للموضوع.

قلت للحاجب:

— أخبر السيّد المدير أنّ هجومنا جديداً على المعلّمين في ناحية الغطّاسة.

خرج الحاجب يُفسح لي الطريق للدخول، وهو يقول:

— ادخل بسرعة فالخبر أغضب المدير جدّاً.

لحظة وقوفي أمام المدير جاءتة مكالمة هاتفية، يبدو أنها خاصة، فقال لي:

- انتظر لحظات حتى أردّ على الهاتف.

خرجت أنتظر، رنّ جرس باب المدير، فقال لي الحاجب:

- تفضّل ادخل.

وضع المفتاح في الباب، فلمح إحداهنّ مقبلة من أول الممرّ الطويل، تسير، وكل عضو من جسمها يهتزّ منفصلاً عن الآخر، قال لي ملهوفاً

- اذهب.. اذهب.. الآن، وعدّ غداً.

- يا أخي الأمر خطير!

- طيب عدّ بعد ساع.

- لن أذهب قبل أن أقابل السيّد المدير.

أدخّل صاحبة الجسم المتكسّر، وأقفل الباب من الداخل، ثم خرج وأقفل الباب من الخارج:

- يقول لك المدير اذهب وقابل الموجه التربوي لمنطقتك، واشرخ له القضية!!.....

## دفتر التحضير

مهمّة الموجهين التربويين والاختصاصيين زيارة المدارس أكثر من مرّة خلال العام الدراسي، والاطّلاع على سير العمليّة التربويّة فيها، وتقويم عمل المعلمين والمدرّسين، والتعاون معهم على تعزيز الجوانب الإيجابية، ومحاولة تجاوز الجوانب السلبية لدى كلّ منهم، ومن مهامهم أيضا مشاهدة دفاتر التحضير، والاطّلاع على أسئلة المذكرات والامتحانات وأوراق الإجابات ودفاتر العلامات، وتقيد المدرّسين بتوزيع المنهاج على مدار العام، وغيرها كثير.

طوال ما يقرب من نصف قرن - مدة خدمتي في التعليم - لم يتفضّل أيّ من السادة الموجهين بزيارتي إلاّ مرّات قليلة، تعدّ على أصابع اليدين، وربّما مرّت خمس سنوات أو أكثر دون أن أرى ابتسامة أحدهم، كما أنّي طوال مدّة خدمتي - وأؤكد على ذلك - لم يطلب منّي أحد منهم أن أطلع على دفتر العلامات أو أوراق الامتحانات أو غير ذلك من مهامهم التربوية، عدا مشاهدة دفتر التحضير والتوقيع عليه سريعا، وأظنّ أنّ الكثيرين من زملائي المدرّسين الذين لم يغادر التباشير أناملهم طوال سنوات خدمتهم في التعليم يعرفون ذلك.

زارني أحد الموجهين عام /١٩٧٦ في إعداديّة الشهيد فيصل خشفة- زميلي في دار المعلمين رحمه الله- في منطقة جورة عوّد، وبعد أن مكث ما يقرب من ربع ساعة، وشاهد دفتر التحضير، ووقع

عليه، غادر قاعة الدرس، خرجت بعد انتهاء الحصة لأقبله في غرفة المدرّسين، وناقش في الجوانب الإيجابية والسلبية لسير الدرس كما يقضي بذلك النظام الداخلي، فلم أجده، علمت بأنه قد غادر المدرسة، وبما أنني كنت وقتذاك غراً في التدريس فقد ظننت أنّ إعطائي الدرس لم يعجبه، فساورتني الشكوك والهواجس.

بعد أسبوع وحسب النظام الداخلي أرسل إليّ السيّد الموجّه الاختصاصي تقريره، للاطلاع عليه والعمل بما اقتراحه من توصيات وتوجيهات، ويتضمّن التقرير ثلاثة جوانب إيجابية وثلاثة جوانب سلبية، طبعاً هذه وجهة نظره في تدريسي، أحترمها ولا أعترض عليها، لكن جاء في أحد الجوانب السلبية أنّه لم يكن لديّ دفتر تحضير، ويفت نظري إلى أهميته وضرورة إحضاره كلّ درس.

كنت في بداية عهدي بالتدريس، وكنت أظنّ أنّ تقرير الموجّه له أهمية كبيرة في حياتي الوظيفية، فسوف يؤثر على مستقبلي في التدريس وعلى ترقّياتي في مديرية التربية — لا أن ينام في الأدرج، ويعلوه غبار النسيان — ذهبت إلى مديرية التربية، ودخلت غرفة السيّد الموجّه — ولا حاجة لذكر اسمه — وانتظرت حتّى انصرف المراجعون، وضعت على الطاولة أمامه تقريره ودفتر التحضير، مشيراً بإصبعي إلى ملاحظته في تقريره حول عدم إحضاري دفتر التحضير، ثم إلى توقيعه على دفتر التحضير مع تاريخ حضوره، ووقفت صامتاً احتراماً له نظر إليهما طويلاً، وبعدها رفع رأسه



يتأمّلي، وكأنّه يحلم، ثم قال بهدوء لافت: لا بأس سأحضر قريباً  
لزيارتك في المدرسة مرّة ثانية.

ولكنّ حتّى هذه الساعة لم أر طلعتة المشرقة، أخبرني زملائي  
إثر هذا الموقف أنّ هذه ملاحظاته، يوجّهها دوماً إلى كل مدرّس  
يزوره.

## التمهيد

حيّيت المدير صباحاً عند باب المدرسة، فردّ على تحيّي، واقترب منّي هامساً، يطلب منّي أن أحضّر في الفرصة الأولى إلى غرفته لأمر هامّ، بعد أن أغلق الباب وطلب من المستخدم ألا يسمح لأحد بالدخول، بدأ حديثه جاداً مُهمّماً:

– يا أستاذ : جاءت شكوى من الطلاب رفعوها عن طريق منظمّتهم، يقولون فيها، إنك تخرج عن موضوع الدرس، وتُضيّع على الطلاب وقتاً ثميناً، وهم يستعدون لتقديم امتحان الشهادة الإعداديّة، وبما أنّي أودّك، وأقدّر جهودك، أردتُ أن نحلّ الموضوع بيننا دون أن يطلّع عليه أحد.

بطبعي أحافظ على الوقت، وألتزم بخطوات الدرس – ويعلم ذلك طلابي الذين درّستهم على مدى نصف قرن – قلت له:

– لم أخرج قطّ عن سير الدروس، ولم أقصّ على الطلاب إلا حوادث صغيرة تساعد على فهم الدروس، وتطرد الملل من نفوسهم.

قال لي:

– يا أستاذ: منذ أيام كنت تشرح قصيدة لأبي فراس الحمداني، فرُحت – كما جاء في الشكوى – تقصّ عليهم سيرة حياته ووقوعه في الأسر، وبعضاً من أشعاره في سجنه، وهذه المقدّمة عن الشاعر لا يأتي منها

سؤال في امتحان الشهادة الإعدادية، والمطلوب منهم فقط كتابة أربعة أبيات للشاعر.

رحتُ أشرح له موقفي فقلتُ:

— لفهم أيّ نصّ أدبيّ يجب أن يعرف الطلاب البيئة الزمانيّة والبيئة المكانيّة اللتين عاش فيهما الشاعر، وظروف حياته ونفسيّة، والمناسبة التي قال فيها الشاعر قصيدته، ثم لأُعني ثقافة الطلاب وتدوّقهم الأدبيّ.

قاطعني:

— هذه المقدّمات يا أستاذ تعطى في الجامعة، نحن هنا نريد أن ينجح الطلاب فقط، نعطيهم الجوهر ونعفّ عمّا سواه.

قلتُ له:

— لماذا لم يصارحني الطلاب بشكواهم مباشرة؟

ردّ:

— لهم منظّماتهم التي ترعى شؤونهم، وتسهر على مصالحهم، فهل هناك أفضل من النظام والالتزام بقواعد المخاطبة والتسلسل الإداري في معالجة الأمور؟!.

قلتُ، ونفسي قد امتلأت بالأسى والإحباط:

— إن شاء الله سألتزم بجوهر المنهاج ولن أحيّد عنه بكلمة واحدة.

كان ذلك منذ أعوام كثيرة خَلَّتْ، ثم تدافعت الأيام سريعة، فإذا نحن الآن أمام المناهج الحديثة التي فُرِّرَتْ عام /٢٠١٠/ والتي جاءت انقلاباً جذرياً على المناهج القديمة العقيمة، وأخذت تنهج النهج الصحيح، وتسائر آخر ما توصلت إليه فلسفات التربية الحديثة في العالم، وكم أتمنى أن يكون السيد المدير - الذي يودّني ويقدر جهودي - على قيد الحياة، ليطلع على ما تُلزم هذه المناهج الحديثة الدارسَ معرفةً مقدّمة هامة للنص الأدبي لا بدّ منها، ليستطيع أن يدرس النصّ دراسة واعية وعميقة، منها معرفة البيئة المكانية، والبيئة الزمانيّة وحياة الأديب والمناسبة التي قيل فيها النصّ الأدبي.

## صانع القرار

— من بعد أمرك يريد المدير أن تحضر الآن إلى عرفته.

قالها المستخدم بلهجة الريفية وانصرف، دخلت غرفة المدير، وجوه مشرقة تبتسم لي، حييت الجميع فردوا التحية بأحسن منها، كانوا ثلاثة ضيوف، قام مدير الإعدائية بالتعريف بهم، أشار إلى الأول: الأستاذ الموجّه الاختصاصي لمادة اللغة الأجنبية، ثم أشار إلى الثانية الشقراء: والدة الطالب (فؤاد أبيض) ثم إلى الثالث: مدرّس الرياضيات في (إعدائية..)، وتابع، وهو صديق والد فؤاد.

بدأ الأستاذ الموجّه الاختصاصي بالثناء عليّ وعلى سمعتي في التدريس، ومقدرتي العلميّة، وابتهاج الأهالي بتدريسي أبناءهم، كنت أنتظر ماذا بعد هذا الإطراء الذي ليس له مناسبة، شكرته على ثقته وطيب مشاعره نحوي ثم قلت له:

— ما مناسبة هذا المديح الذي ربما لا أستحقّه؟

— لا يا أستاذ، أنت مدرّس مشهور ومعروف، لكن الطالب فؤاد أبيض ابن المدام.. وأشار بيده إلى السيّدة الشقراء التي حاولت بدورها أن ترشيني بابتسامتها الساحرة، بقيت صامتاً، تابع الأستاذ الموجّه الاختصاصي:

— لنا رجاؤ عندك هو أن تعيد الطالب فؤاد إلى مقعده جانب رفيقه (وائل حلاق)، إنهما صديقان متلازمان منذ الطفولة، وحرمانك له من

مجاورته في الصفّ أثر على نفسيّته، فأصيب بالإحباط والاكتئاب، وربما أثر ذلك على متابعته للدروس.

في الحقيقة أنا الذي أصبت بالإحباط والدهشة، رحت أنقل نظراتي بين الجميع، ثم ركّزتها على المدير الذي حاول أن يتهرّب من نظراتي، استأنف الأستاذ الموجّه الاختصاصيّ مع ابتسامة ودود، وكأني صديق حميم له:

– هل نعتبر الأمر منتهياً؟

أردت أن أخرج المدير الذي وافق على عقد هذا اللقاء التربويّ، الذي استوجب قطع الدرس، وترك الطلاب:

في الصفّ للفوضى فقلت:

– الأمر بيد السيّد المدير، فإذا تفضّل بالموافقة، انحلت المشكلة.

اتجهت الأنظار نحو المدير الذي كان يحاول التهرّب من مواجهة العيون المنتظرة ردّه، أدرك أنني حشرته وسط دائرة القرار، قال:

– حسب النظام الداخلي، هذا الأمر يقرّره المدرّسون، لأنه يتعلّق بهم وبسير العملية التعليميّة داخل الصف.

أظنّ أن السيّد المدير لم يقرأ قط في حياته جملة واحدة مما في النظام الداخلي للمدارس، علماً بأنّ نسخة منه مستلقية أمامه على

طاولته بكسل وفتور نظيفة، لم تمسها الأيدي، أعادني إلى المواجهة من جديد، فقلت:

– أرى من الأفضل أن يبقى الطالب فؤاد في المكان الذي خصّصته له مؤخراً، لأنّ عزله عن رفاقه في الصفّ سيعود عليه بالفائدة، ويُبَعده عن ثلّة المشاغبيين حوله.

وقمت للانصراف، تغيّرت لهجة الأستاذ الموجه الاختصاصي، لكنّه بقي محافظاً على هدوئه وهو يقول:

– إذا تعذّر نقله هنا، فربّما نحتاج إلى قرار من مدير التربية، لإعادة الطالب إلى مكانه جانب صديقه.

كان تهديده مبطناً ومهدّباً، أحبته وأنا أفتح باب غرفة المدير للخروج، ملمحاً إلى إصراري المهدّب أيضاً:

– مدير التربية هو صاحب القرار الفصل في كلّ أمر.

كان ذلك سنة ١٩٧٦/ وفيها أدخلت مديريّة التربية العنصر النسائيّ إلى مدرستنا (إعدادية ابن رشد) التي كلّ طلابها من الذكور، فأصبح الجهاز التدريسي مختلطاً من المدرّسين والمدرّسات.

يبدو أنّي لم أحسن تقدير مكانتي في التربية كمدرّس عريق حقّ قدرها، فجاء أمر نقلي إلى مدرسة زميلنا الشهيد فيصل خشفة في منطقة (جورة عواد)، التي تقع شرق مدينة حلب، وكانت الطرقات فيها غير معبّدة، نسير وسط بحيرات من ماء المطر والطين

والوحوّل، وشذا روث الحيوانات يعطّر الأجواء خصوصاً بعد هطل المطر، كان متعهد البناء يسلم للتوّ المدرسة إلى مديريّة التربية، دخلناها وهي ما تزال قاعاً صفصفاً، أرضاً وجدراناً وأسقفاً ورطوبة..

لست أدري، أكان أمر نقلي نتيجة لمزاحمة العنصر النسائيّ، فلم يبق لي مكان في مدرستي (إعدادية ابن رشد) القريبة من بيتي، أم أنّ يد الأستاذ الموجّه الاختصاصي وصلت إلى مركز صنع القرار في مديريّة التربية؟!!

عندما سألتُ موجّهي لمادّة اللغة العربيّة عن سبب نقلي، أجابني بجملة واحدة، ثم انصرف بوجهه عنّي ليتحدّث مع مراجعين آخرين:

– جاء أمر نقلك لضرورات أمنيّة.

وهنا "قطعتُ جَهيزَةً قول كلّ خطيب" فرفعت الأقلام وجفت الصحف.



## قم للمعلم

ذُكرتُ سابقاً أنني نُقلت مرّةً دون رغبةٍ منّي إلى إعدادية الشهيد فيصل خشفة، في منطقة (جورة عواد) شرق مدينة حلب عام ١٩٧٦/، كان أكثر سگان تلك المنطقة من المهاجرين من الريف الشرقيّ والبادية، وما تزال العقليّة القبليّة والعشائريّة تتحكّم في نفوسهم وتصرفاتهم، طبعي السّمح المرّح ساعدني على التآقلم معهم، وتكوين علاقات صداقة وموودة بيني وبين الطّلاب، ثم عدت ونُقلت إلى ثانوية المعريّ جانب بيتي في حيّ الحميديّة.

بعد بضعة أعوام وبالتحديد عام ١٩٨٣/ كنت أراقب في امتحان الثانويّة العامّة (طّلاب دراسة حرّة) في مدرسة خليل هنداي في منطقة (كرم الكسما)، قبل بدء الامتحان اقترب مني أحد الطّلاب، وعرّفني بنفسه، فقد كان قبل بضعة سنوات أحد طّلابي في مدرسة الشهيد فيصل خشفة في منطقة (جورة عواد)، تذكّرته ورحبت به، ودار بيننا حديث قصير ودّي، تمنّيت له التوفيق والنجاح، وبدأ الامتحان، لاحظت أنّ المستخدمين يقدمون لهذا الطالب الشاي والقهوة دون أن يطلبها — كان تقديم المشروبات مسموحاً به في قاعات الامتحان — دخلت إحدى المستخدمات، وقدّمت للطالب أحد المشروبات، وألقت في درجه أوراقاً مطويّة، فأعطاهمئة ليرة، وانصرفت، تقدّمت إلى الطالب وأخرجت الأوراق من الدرج، ووضعتها في جيبي، مكتفياً بأخذها دون أن أكتب تقريراً في الحادثة، فهذه طبيعتي ومسلكي ألا أضّرّ أحداً، ولو أنّ ذلك خطأ ومخالف

للقوانين والتعليمات، فجأة انقلبت المودّة إلى عداوة، واشتعلت نظرات هذا الطالب غضباً وحقداً، وكأنّه يريد أن ينقضّ على عنقي، لقد تمزّق رداء الحضارة الرقيق، وعاد إلى عقليته العشائريّة، يريد الانتقام بدل الاعتذار، ثمّ خرج وهو يدكّ الأرض برجليه، وينفث البركان، دخل رئيس المركز إلى القاعة فأعلمته بسلوك المستخدمين لينتبه إلى تصرفاتهم.

مساء اتّصل بي أحد زملائي المدرّسين، وقال: أنصحك ألاّ تذهب غداً إلى الامتحان، فالطالب الذي أخذت من درجه الأوراق هو ابن زعيم عشيرته، والعشيرة كلّها غاضبة، وسوف ينتظرونك غداً في الطريق إلى المدرسة لينتقموا منك، علم زميلي بالخبر سراً لأنّه من أبناء تلك المنطقة ومن عشيرة أخرى، وهو يعلم شراسة أفراد عشيرة هذا الطالب.

لا أنكر أنّي قلقّت لهذا الخبر، جلست أقلّب الأمر على وجوهه، وأتخيّل (السيناريوهات) المحتملة التي ستحدث في الطريق إلى المدرسة، كانت تتنابني أحياناً مشاعر الخوف من الفضيحة التي ستلحق بي، فأقرّر عدم الذهاب إلى الامتحان، وأحياناً أخرى ينتفض الكبرياء في نفسي، وأقول: لا بدّ أن أذهب، وليحدث ما يحدث، كانت ليلة طويلة بأحلامها الثقيلة.

خرجت صباحاً ونظراتي تجوب الشوارع والمنعطفات، أتربّب من أيّ زاوية سيبدأ الهجوم، وأتساءل كيف سيكون الهجوم؟ بالأيدي أم بالعصيّ والسكاكين على عادة أبناء العشائر؟ أم بوسيلة

أخرى؟ لاحظتُ أنني أسرع الخطأ، فتباطأت في سيرتي كي أبدو طبيعياً، وصلت باب المدرسة، شاهدت الطالب مع ثلثة من أقرانه بلباسهم القروي الكلابيات والشملات على رؤوسهم، يقفون بعيداً، تجاهلتهم ودخلتُ وأنا أنظاھر بالعفويّة واللامبالاة، وأمازح زملائي المدرّسين، بعد انتهاء الامتحان خرجت من المدرسة أنظر يميناً ويساراً، فلم أجد أحداً منهم، لكنني حاولت أن أسير مع زملائي ولو طال الطريق، وعيناوي ترصدان كلّ منعطف وأدقّ حركة ورائي وعلى جانبي.

تتابعت أيام الامتحان، وبعدها اختفت الثلثة التي تنتظرني، وبدأ الطالب يأتي إلى الامتحان دون صحبة أحد، ولم أعد أراه، لأنّه لا يجوز للمدرّس أن يراقب في أيّ قاعة أكثر من مرّة واحدة إلا للضرورة، ترى أكان امتناعه عن إيذائي احتراماً لي، لأنني كنت يوماً ما أستاذة؟ أم لأنّه خاف من أن يصل الخبر إلى مديريّة التربية، وتُتخذ بحقّه عقوبة الحرمان من الشهادة؟ أم لأمر آخر؟ لست أدري.

وتتالي الأيام والأعوام، وكلّما تذكّرت تلك الحادثة، أعيش لحظاتها المضطربة، وأهنئ نفسي بالسلامة، وأرجو منكم الآن وبعد مضيّ ثلث قرن عليها أن تهنئوني أنتم أيضا بالسلامة.

## الاستيداع

انتهت مدة الاستيداع الذي حصلت عليه زوجتي لرعاية ابنتنا المريضة، وعادت بعد عام كامل إلى مديريّة التربية، وقدمت أوراقاً ثبوتية جديدة، طُلبت منها، وكأنها معلّمة جديدة تُعيّن أوّل مرة، ثم جاء تعيينها في مدرسة على طرف المدينة الشرقيّ، اعترضت على مكان التعيين، لأنها خدمت في الريف عدّة سنوات، ثم في أطراف المدينة في بدء عملها في التعليم، وطلبت أن يعيدوها إلى مكان عملها الأوّل، لكنّ مكانها قد سُخِّل، وعليها أن تبدأ من جديد في مدارس بعيدة، ثم كلّ عام أو عامين تُنقل إلى مدرسة أقرب.

قصدتُ معاون مدير التربية، وكان من أصدقائي، ولي معه ومع بقيّة أصحابنا جلسات مودّة، وسهرات طويلة عامرة، رجوّه أن يعيّننا في مدرسة قريبة من بيتنا في (حي الحمديّة) قدرَ الإمكان، وهذا حقّنا، اعتذر بحرارة، وأقسم قائلاً "إنه لا يوجد شاغر واحد في كل مدارس منطقتنا - وأسمائها لي بأنها (منطقة مغلقة) - وعندما يتوفّر أوّل شاغر ستكون زوجتي أوّلى المعيّنات فيه"، حاورته وداورته دون جدوى، وأخيراً اقتنعت بصدق تبريراته وأيمانه المغلظة، وعندما همّمنا بالخروج دخل ضابط ببزّة مبرقعة، فانتفض معاون مدير التربية - صديقي العريق - واقفاً دون وعي، يرحب بالضيف، وأجلسه إلى جانبه، ونسينا تماماً - أنا وزوجتي - ونحن أمامه، طلب الضابط منة أن يُعيّن زوجته المعلّمة في مكان قريب من بيته - وكان مصادفة قريباً من بيتنا - فطلب له فجاناً من القهوة،

وفتح سجلاً كبيراً، وأخذ يعدّد له أسماء المدارس القريبة من بيته — وطبعاً القريبة من بيتنا — والشواغر التي فيها، ليختار منها ما يناسبه، ويريحه، ويريح زوجته.

انسحبنا من حضرة معاون مدير التربية — الصديق الصدوق — مدحورين، وكما يقال خاويّ الوفاض، أخذتُ أطوف على الأصدقاء في مكاتبهم في المديرية، لعلهم يساعدونني، أو يدلونني على حلّ ما، فاتّفق الجميع على أن مشكلتي معقّدة لا يحلها إلاّ (الحجّة)، سألتُ: وفي أيّ قسم في مديرية التربية تعمل (الحجّة) حتى نقصدها، سخروا مني، قال أحدهم: ألا تعرف (الحجّة)؟!، أجبته: لا والله لا أعرفها، فهمس في أذني: (الحجّة) أمّ فلان — المسؤول الكبير — تحلّ الأمور وهي في بيتها على الهاتف، لأنّ مقامها الجليل لا يسمح لها بأن تأتي إلى المديرية ثم علمتُ أن كلمتها هنا هي النافذة ما تقوله قرار مُبرم، لا يقبل الطعن أو النقض، لأنها واعية، تقدر الأمور حقّ قدرها، تمتاز ببُعد النظر ورجاحة العقل، ولم يصبها الخرف رغم بلوغها الثمانين من العمر، فهي مثقّفة، تحمل ثلاث شهادات (بوردر) من أمريكا، لذلك أطلقوا يدها لحلّ أمور مديرية التربية في مدينة حلب، والتي تضم ألفي مدرّسة فقط وستين ألف عامل من معلّم ومدرّس وموظّف.

ولكن كيف لنا أن نصل إلى مقام (الحجّة)، رُحنا نسأل، وفتش عن مكانها، ونلتمس أصحاب الدالّة عليها، أخبرونا أنها في الديار المقدّسة، تقوم بأداء شَعيرة العمرة، وعلينا أن ننتظر عودتها بالسلامة، قلت: ما شاء الله (الحجّة) فائزة بالدارين، تَمسِكها دنيا

آخرة، وانتظرنا قدومها الميمون، ولكن دون أن نستطيع الوصول إليها بادئ الأمر، لأن الوصول إليها ليس بالأمر السهل، إنه يحتاج إلى معاناة وطول صبر، أخيراً استطعنا الوصول إلى مقام (الحجّة) عن طريق وسيط (مفتاح)، لكن الجواب كان مُحبطاً لنا، فر(الحجّة) كما قال الوسيط ستبذل جهداً كبيراً لمساعدتنا (مخابرة هاتفية)، وهذا الجهد يحتاج إلى مقابل، لا طاقة لنا به، فبقي تعيين زوجتي في منطقة طريق الباب، أبعد مدرسة عن بيتنا، وأقرب مدرسة إلى المقبرة الإسلامية الحديثة.

## متابعة كل جديد

بعد سنوات طويلة من الخدمة والخبرة والممارسة في كل مجال من مجالات الحياة، يتعرّف الإنسان أسرار مهنته وخفاياها، فتُصقل مهاراته، وينضج عمله، فيبدع ويعطي الأصبوب والأفضل.

أما في المجالات العلميّة والفكريّة فالإنسان علاوة على الخبرة والتجربة يحتاج إلى الدراسة، ومتابعة كل جديد ومتطورّ ومستحدث ومُخترَع في مجال اختصاصه.

وربّما كان الأدب أكثر الجوانب التي تحتاج إلى المتابعة، ليكون المختصّ أو المهتمّ بالأدب مجليّاً متفوقاً، فكلّ يوم تلفظ المطابع عشرات بل مئات الأعمال الأدبيّة والدراسات والترجمات التي يعجز المختصّ حتّى عن حفظ عناوينها.

كنت مشرفاً على تصحيح سؤال التعبير في الثانوية العامّة عام ١٩٩٧/ فلاحظت أنّ بعض المصحّحين والمدقّقين لا يضعون خطأً تحت الأغلاظ النحويّة أو الإملائيّة، كما هو المطلوب منهم، من هذه الأغلاظ ثلاث كلمات في اللغة لا تعرّف بـ (أل) هي (كلّ وبعض وغير) فلا يجوز أن نقول: (جاء الكلّ) بل تعرّف بالإضافة فنقول: (جاء كلّ الطلاب أو كلّهم)، لفتُ نظر زملاء المدرّسين إلى هذا الغلط، وضرورة وضع خط أحمر تحت كلّ كلمة تخالف هذه القاعدة، فاعترض أكثرهم وقالوا: إنهم لم يسمعوا بهذه القاعدة من قبل، وأظنّ أنّ بعضاً منهم شكّ في صحّة ما قلت.

في اليوم التالي أحضرت معي ثلاثة مراجع، يشرح كلّ منها القاعدة بشكل مفصّل، ووضعتها على الطاولة أمام المدرّسين، الذين يشكّلون خمس لجان أيّ خمسة عشر مدرّساً، وقلت لهم: هذه هي المراجع، فمن أراد أن يتأكّد من صحّة القاعدة التي أشرت إليها أمس فليقرأ الإجابة الصحيحة فيها، وكنت قد كتبت على ورقة خاصّة رقم الصفحات الموجودة فيها القاعدة، تسهيلاً لهم، ووضعتها فوق المراجع.

جلست على طاولتي، وعيني لم تغفل عنهم طوال النهار، أراقبهم، ومن العجب أنّ لا أحد منهم دفعه الفضول إلى التأكّد من صحّة القاعدة، أو حتّى التسليّة بتصفّح المراجع، فلم يمدّ أحد من المدرّسين الخمسة عشر يده ويلمس المراجع، عندما أخذتها مساء من أمامهم كانت بلقّتها، لم يحركها أحد.

بعد أسبوع من بدء التصحيح جاءنا تعميم من وزارة التربية، يتضمّن جواز إعراب كلمة (سواراً) تميّزاً إلى جانب إعرابها الأول حالا في بيت الشعر من قصيدة نزار قباني:

يا دمشق البسي دموعي سواراً      وتمني فكلّ صعب يهون

بدأ الجدل والنقاش حول الإعراب الجديد للكلمة، وضجت القاعة الكبيرة في المعهد الصناعي، فكلّ لجنة أو مجموعة من المدرّسين انخرطت في حوار وسجال، حتّى اضطرّ رئيس المركز إلى أن يطلب من زملائه المصحّحين أن يكفّوا عن الخوض في هذه



المسألة، وأن يلتزموا بتعميم الوزارة، وقد اقترح الزميل المدرّس (محمد ريمان) المتميّز بالنحو والإعراب أن يخاير الوزارة، ويناقشهم في إعراب هذه الكلمة.

بعد ساعة كنت أطوف على اللجان التي أشرف عليها، فسألني أحد زملاء المصحّحين عن رأيي في قبول إعراب الكلمة (تمييزاً)، أجبت: قول سيبويه في هذه المسألة صريح، فكلّ تشبيه بليغ بشكل جملة فعلية يُعرب (حالياً) فقط، مثل (جاء خالد غزلاً) أي سريعاً أو راكضاً، ويمكن أن نضع الجملة بصيغة أخرى فنقول: (جاء خالد شبة الغزال، أو مشبهاً غزلاً)، ردّ أحدهم: ولماذا أجازت الوزارة الإعراب الثاني؟! أجبت: أولاد المسؤولين لهم آراؤهم واجتهاداتهم أيضاً في هذا الميدان وفي كلّ ميدان، ويبدو أنّ أحدهم قد اجتهد أثناء الامتحان، وأعربها (تمييزاً)، وعلينا أن نأخذ برأيه السديد واجتهاده الفريد!

سأل آخر وكيف بالطالب الذي صُحّحت ورقته منذ أسبوع، وتُبنّت علامته؟! فقلت: "له الله ورحمته.. المهمّ ابن المسؤول ونتيجته..".

عندما هممت بالابتعاد عن اللجنة سألتهم بابتسامة أليفة: هل تريدون أن أحضر لكم في الغد مَراجع لتتأكّدوا من قول سيبويه ورأيه في إعراب الكلمة؟ نظر بعضهم إلى بعض ولم يجبني أحد..

## المجزرة

أسمع بالمجازر، ولكنني والحمد لله لم أشهد واحدة منها، وأسأل الله أن يبعدني ويبعدكم عنها، وعن رؤيتها، المجزرة الحقيقية التي رأيتها كانت في مركز تصحيح مادّة اللغة العربيّة، كانت مجزرة مستقبل ومصير، لا مجزرة دماء وأرواح.

كان ذلك عام /١٩٩٧/، أصرّ السيّد وزير التربية على أن تكون نتائج الثانوية العامّة فوق طاولته صباح يوم الخميس، اليوم هو الثلاثاء، والمدرّسون يستعدّون للانصراف، فقد قاربت الساعة الثانية ظهراً، وانتهى دوام التصحيح لهذا اليوم، أخذ الموجّه الاختصاصي – وهو رئيس مركز التصحيح – يرجو المدرّسين أن يحضروا مساء من الساعة السادسة وحتى التاسعة لإنهاء التصحيح، كي لا يغضب السيد الوزير، ويغريهم بمضاعفة الأجر وعدد ساعات التصحيح، ويلجّ على أصدقائه والمقرّبين منه لينقذوه من هذا المأزق.

حضرتُ مع المستجيبين لرجاء الموجّه، كنت مشرفاً على سؤال التعبير، بدأ التصحيح، لاحظت أنّ أكثر المدرّسين الحاضرين لم يدرّسوا منهاج الثانوية العامة، وليس لهم اضطلاع عليه، فالتصحيح كان كيفيّاً، فمن يستحق /١٣/ درجة يُعطى /٤/ درجات، ومن يستحق /٣/ درجات يُعطى /١٥/ درجة، أطلّعتُ الموجّه على الأمر، وقلت له: هذا ظلم كبير للطلاب، ردّ عليّ: (مَشِيها) ليس لدينا وقت، والمغلّفات أكوام أمامنا، ماذا نفعل؟!.

عندما انتهى الدوام الإضافي الساعة التاسعة ليلاً، وحان موعد الانصراف، أخذ الموجّه يغري المدرّسين بأجر كبير إن استمروا حتى الثانية عشرة ليلاً، بقي قلة منهم، وطبعاً كنت من الذين تمّلقهم الموجّه، قال لي، ليس هناك مشرف (مراجع) غيرك، وهنا بدأت المجزرة الحقيقية، سالت دماء العلامات، وضاع الجهد والعرق وسهر الليالي، كان المغلف الذي يضم مئة ورقة ينهي تصحيحه مدرّسٌ غرّ بنصف ساعة فقط، رحّت أجري هنا وهناك، أنبّه هذا، وألفت نظر ذلك، كان الجواب واحداً، إذا لم يعجبك عملي فدعني أنصرف، فأعود وأطيب خاطره بكلمتين حلوتين ليتابع معنا العمل إرضاء للسيد الوزير.

بعد ساعة أحسستُ بالإرهاق الجسديّ والنفسيّ، وقفتُ لاهثاً أشعر بالعجز وتأنيب الضمير، أتساءل: أتراني أنا المسؤول عن هذه المذبحة؟! لقد أرضيت ضميري، ولا حيلة لي أمام هذا الظلم.

في اليوم التالي أقام السيد مدير التربية بحلب مأدبة إفطار تكريماً للمدرّسين الذين سهرّوا وأنجزوا العمل في وقت قياسي كسباق الماراتون، فدعا الموجّه الاختصاصي – رئيس المركز إلى المأدبة أصدقاءه وخلصاءه وبخاصة المدرّسات الجميلات، وكان أكثرهم ممن لم يشاركووا في العمل ليلاً، واستثنى من الدعوة من شارك معنا حتى منتصف الليل، أما دعوة الموجّه لي إلى مأدبة الإفطار فساتركها لذكائكم!..

## رئيس المركز

طوال واحد وأربعين عاماً — مدة خدمتي في التعليم قبل أن أحال على المعاش وأدرّس في المدارس الخاصة — لم أتبوأ أيّ منصب أو إدارة، بل كما ذكرت سابقاً بقيت فارس الحلبّة أمام السّبورة، وطوال واحد وأربعين عاماً لم أُعيّن رئيس مركز امتحان لإحدى الشهادتين الإعدادية أو الثانوية، لأسباب لا يساعد المقام على ذكرها إلا ثلاث مرّات، آخرها كان عام /١٩٩٩/ في مدرسة الغسانية في منطقة السيّد علي بحلب.

اتّصل بي كثيرون قبل الامتحان، وعرضوا عليّ مغريات كثيرة، لعلهم يجدون ثغرة ينفذون منها إلى تزمّتي والتزامي بالواجب والقوانين، لكن دون فائدة، كنت أرى — وما أزال — أنّ المراقبة في الامتحانات أمانة لتحقيق العدالة، فيأخذ كلّ طالب ما يستحق، فلا يحتلّ مقصراً مكان مجدّ، ولا يزاحم عابثاً مستهترّاً متفوقاً، ويأخذ مقعده في الجامعة، منذ أوّل ساعة وكما يقال (مسكتها حنبلية)، وشرعت أطوف على القاعات، أطمئنّ على سير الامتحان، أحذّ أصدقائي المراقبين قال لي: عددت لك مرّات دخولك قاعتي، فكانت خمساً وعشرين مرّة — والآن أقولها إن شاء الله صادقاً — وكان الطلاب في مركزي من طائفة معينة، وذوهم الميسورون يدورون بسياراتهم الفارهة حول المدرسة دون أن يتجرّأ أحدٌ على الاقتراب من المركز.

مرّت أيام الامتحان بسلام وانضباط، وغداً اليوم الأخير، امتحان مادّة اللغة العربيّة، المادّة الفصل بالنسبة إلى طّلاب مركزي، وإلى كلّ الطّلاب، في الساعة الواحدة ليلاً قرع الباب، نهضت من نومي متوجساً مضطرباً، فإذا مستخدم من مديريّة التربية يناولني قرار تحويلي رئيساً لمركز امتحان مدرسة الهاشميّة في منطقة (باب النصر)، مع ابتسامة غامضة، يحاول إخفاءها، لم أجد لها تفسيراً، لقد استطاعوا أخيراً أن يخرقوا الجدار!.

صباح اليوم التالي ذهبت لأخذ مكان رئيس مركز مدرسة الهاشميّة، الذي نُقل بدوره رئيساً لمركزي الأوّل في مدرسة الغسانيّة، لا يستطيع المرء مهما أوتي من براعة وحزم أن يقف أمام انهيار السدّ، أخذتُ قبل بدء الامتحان أحمّس المراقبين والمراقبات لنقوم بالواجب ونحفظ الأمانة، ليكون الجميع منضبطين ملتزمين بالقوانين، فيأخذ كلّ طالب حقه وفرصته، ثم مع بدء الامتحان شرعتُ أطوف على القاعات، أنبه كلّ طالبة تحاول الغشّ وأحدّر وأهدّد، كان تهاون المراقبين والمراقبات واضحاً، قالت لي إحدى المراقبات بلهجة ممطوطة، وهي تنظر إليّ بعين واحدة فقط، وتستر ما تبقى من رأسها إلى قدميها:

— يا أستاذ حرام.. دعنا نعمل الخير.. طالبات مسكينات يحتجنَ إلى مساعدة.

ماذا أقول لهذه الساذجة البلهاء!؟، سألتها:

– يا آنسة هل تؤدّين الانصراف إلى بيتك؟

ردّت بحماسة:

– نعم نعم، والله ورائي طبخة.

شاهدت إحدى الطّالبات تصعد الدرج من الطابق الأرضي،  
وتتجّه إلى قاعة امتحانها، سألتها:

– أين كنت؟

أجابتنني:

– في الحمّام.

– ومن سمح لك بالخروج؟

– المراقب.

سألته:

– يا أستاذ كيف تسمح لها بالخروج وحدها؟

– وما المانع، إنها مضطرّة.

– يا أستاذ لا يجوز أن تخرج الطّالبة من قاعة الامتحان وحدها ثم  
تعود!

– ألا يوجد ثقة؟!

ساعده زميله المراقب معه في القاعة:

– يا أستاذ المشكلة صغيرة لا تكبروها.

لا حول ولا قوة إلا بالله. طالبة أخرى خارج قاعة الامتحان  
تقرأ في كتاب، سألتها:

لماذا لم تنصرفي؟

– لم انته بعد من الكتابة.

– ولماذا أنت خارج القاعة؟

– لقد سمح لي المراقب.

سألته ، قال لي:

– دقائق وسوف تعود.

– لكنّها تقرأ في كتاب؟!!

– وما الغرابة في ذلك!..

رحت أركض هنا، وأصرخ هناك، والجميع ينظرون إليّ على  
أنني (دقة قديمة)، مريض نفسيّاً، ويدعون لي بالشفاء.

خرجت طالبة من إحدى قاعات الامتحان تبكي، سألتها عن  
السبب، ازدادت بكاءً، ثم قالت:

— لم يسمحوا لي بأن أكتب بشكل جيّد، الجميع يسألونني، فهذه تشدني من كتفي، وثانية تركل رجلي، وثالثة تتاديني من آخر القاعة، والمراقبة تقرأ الإجابات من ورقتي، وتنقلها إلى الطالبات، لقد ضيّعوني يا أستاذ.. ضيّعوني..

عندما حضر مشرف المنطقة شرحت له الحالة التي وجدتها في هذا المركز الجديد ، فأجابني "يا أستاذ لا تكن متشنجاً مترمّماً، الأمر يحتاج إلى مرونة ومسايرة، نشد من جانب ونرخي من جانب آخر"، حينها تذكّرت موقفاً كان عام /١٩٧٠/ في مركز ثانوية المعريّ، كان يُسمح للطلاب حينها في مادة الرياضيات بأن يدخلوا معهم إلى قاعة الامتحان كتاب جداول اللوغريتمات، أحد الطلاب — وكان متفوقاً أعرفه ويعرفه الجميع حتى المراقبون — وجدوا بين صفحات كتابه مسألة رياضيات مع حلّها، لكنّ ليس لها علاقة بأسئلة الامتحان، ومع ذلك حُرّم عاماً واحداً من تقديم امتحان الثانويّة العامة، فالنظام هو النظام، وما أشبه اليوم بالأمس!.



## عيد المعلم

اتصل بي خالي هاتفياً وقال:

— نقلوا ابني هشام إلى مدرسة بعيدة عن بيتنا، الله يرضى عليك  
خبرتك حتى تعيده إلى مدرسته الأولى، أنا جالس جنب التلفون، ردّ  
لي الجواب بسرعة.

ثم أغرقني بسلاماته وأنهى المكالمة، بعد كفاح أربعين سنة في  
هذه المهنة المقدّسة، ظنّ خالي الساذج الطيّب القلب أن كلمتي نافذة  
في مديريّة التربية لا تُردّ، ولا تصير اثنتين، وأستطيع أن أمرَ مدير  
التربية، بل حتى أمرَ الوزير.

كنت ساعتها عائداً من مقابلة السيّد مدير التربية، الذي رفض  
إعفائي من مراقبة فحص الشهادات الإعدادية والثانوية بسبب أحد  
أمراض المهنة الواضح للعيان، والذي رآه السيّد مدير التربية، ولا  
ضرورة لذكر اسم هذا المرض، وهدّدي إن تغيّبت عن المراقبة بنقلي  
إلى مدرسة (عصام النادري) تحديداً كما قال، والتي تقع في منطقة  
باب النيرب شرق مدينتنا حلب، بعد أن علم أن بيتي يقع في غربها  
قريباً من (بنيامين) أي بينهما مسافة عشرين كيلومتراً، قلت له:

— يا أستاذ: من تجاوز الخامسة والخمسين من العمر يُعفى من  
المراقبة بقرار وزاريّ.

ردّ صارماً: (وكان معروفاً عن السيّد مدير التربية هذا حدّته وشدّة انفعاله، وربما - أقولها خجلاً - غروره بمنصبه الذي هو أكبر منه بكثير).

— أنا الذي يُصدر القرارات هنا، أنا الأمر والناهي.

— لكنّه قرار وزاريّ، يجب أن يُنفذ وأن يستفيد منه كلّ مدرّس ومعلّم.

رد باستهتار:

— .....

أجبتّه، بعد أن شعرت بأن كرامتي قد جُرحت من إجابته:

— إذا لم تعفني من المراقبة فسأقدّم استقالتي.

— وماذا تنتظر؟!

جلست في البيت أستعرض صفحات أربعين سنة أحرقتها في أقدس مهنة، بدءاً من التعليم في غرف طينيّة في القرى النائية، وانتهاء بالتهديد بالنقل إلى أقصى المدينة، تقديراً لسنوات خدمتي الطويلة في تعليم الأجيال.

رنّ جرس الهاتف من جديد، جاءني صوت خالي:

— ما جرى معك؟ هل نقلت الولد؟

— غداً غداً إن شاء الله، مدير التربية في إجازة، وغداً سيعود، وسأنهي الأمر.

قال متعجباً:

— ألا تستطيع أن تنقله أنت من عندك، من دون مدير التربية؟

— لا يجوز، هناك إجراءات مسلكية يجب أن تُتبع.

— لا تتأخر غداً، سأنتظر مخابراتك.

جلست أحتق في التلفاز، وأنا أفكر بطريقة أو بصديق يساعدني على إعادة ابن خالي إلى مدرسته، وكان التلفاز يعرض برنامج بناء الأجيال، وكان ينقل تسجيلاً لوقائع الاحتفال الكبير بعيد المعلم العربي، والسيد مدير التربية ذاته يسلم بابتسامات عريضة وفرح إعلامي بعض المعلمين الهدايا التذكارية، عرفانا منه ومن الوطن بعبء المعلم الكبير الذي لا يقدر بهدية أو بكلمات حبّ وثناء، كما كان يقول ويؤكد السيد مدير التربية.

## سبر معلومات

يدخل المستخدم (صاروخان) في ثانوية (ش) الخاصة إلى غرفته الصغيرة جانب باب المدرسة، يتبعه طالب رسب في الصفّ الحادي عشر في مدرسته الحكوميّة، فيقوم المستخدم بسبر معلومات الطالب في كل الموادّ الدراسيّة الثمانية، ليتمّ قبوله في المدرسة الخاصة، إذا اجتاز الامتحان بنجاح، وترسل النتائج إلى مديريّة التربية للموافقة عليها، ربع ساعة فقط ويكون كلّ شيء قد انتهى، وظهرت النتائج الباهرة، تسعين من مئة في كلّ الموادّ، طالب ممتاز، لكن المدرّسين في مدرسته الحكوميّة متشدّدون متزمّتون (من الدقة القديمة) لا يحسنون تقدير الإبداع أو المواهب، وربما كانت قدراتهم العلميّة متواضعة، فيرسب الطالب ظلماً وعدواناً وغفلة من المدرّسين الأغرار الذين اقتربوا من سنّ التقاعد.

يعطي المستخدم (صاروخان) الطالب أسئلة اللغة الفرنسيّة بدل الإنكليزيّة، يعترض الطالب، ويقول له: لغتي إنكليزيّة — أيام صاروخان كان المقرّر لغة واحدة — فيردّ صاحبنا: (كلّها مثل بعضها، ماذا تفرق الإنكليزي عن الفرنسي)، يكتب الطالب، وقد نزل عليه وحيّ (فكتور هيجو) فينال تسعين درجة من مئة، ثم يعطيه مباشرة أسئلة مادّة القوميّة، وهو يحثّه على الإسراع، فيقول الطالب: هذه أسئلة قوميّة وليست ديانة، فيرد عليه صاروخان: لا يوجد أسئلة ديانة، ثم الديانة أخت القوميّة، فيرفرف عليه طيف (ساطع الحصري) من وراء العصور، وهكذا الرياضيات بدل الكيمياء، وصاحبنا يصحّح

الورقة فوراً وبثوان، وإلا لماذا سُمّي (صاروخان)؟!، طبعا لسرعة إنجازه لكلّ عمل، لكن كيف يصحّح؟! فالله والراسخون في الامتحانات أعلم، وقد علّم أخيراً أنّ (صاروخان) يحمل بورداً أمريكي في أحدث طرائق سبر المعلومات. ثم تصدر النتائج بعد ربع ساعة فقط، وقد نال الطالب الراسب في مدرسته ما نسبته تسعين من مئة في كلّ المواد، وإذا اعترض الطالب على علامته، يتكرّم عليه (صاروخان)، ويعطيه مئة من مئة، بينما يكون أمين السرّ قد أنهى إجراءات تسجيل الطالب في الصفّ الثاني عشر، وقبض من والده المبلغ المتفق عليه، وأعطاه إيصالاً بالمدفوع، ذلك كلّه قبل أن تصدر النتائج من غرفة (صاروخان)، وربما كان أمين السرّ قد علم بالنتائج من (الإنترنت)، أو بحدسه إذا كان الإنترنت مقطوعاً، لأن حدسه لا يخطئ في مثل هذه الحالات.

أعادني (صاروخان) إلى ستينيات القرن الماضي، وفي ثانوية المأمون، جاءني صديقي أحمد (م) حزيناً، فقد رسب في الصفّ الحادي عشر، لأنه لم ينل درجة النجاح في مادة اللغة العربية، كان عمه الأديب والشاعر عبد القادر (م) مدير الثانوية، وتحت إبحاح الأهل والأقرباء، وبعد تردّد من المدير — وكان رحمه الله رجلاً خجولاً حياً — طلب من مدرس مادة اللغة العربية إعادة النظر في ورقة ابن أخيه، لكن المدرّس أصرّ على درجة الرسوب، وهكذا أعاد صديقي السنة الدراسية مرّة ثانية.

وفي حادثة مماثلة عام /١٩٦٢/ ، كنت طالباً في الصفّ الثاني في إعدادية إسكندرون، وكان مدير الإعدائيّة الأديب خليل هنداوي رجلاً صارماً دقيقاً في كل شيء، ظهرت النتائج في آخر العام، وأخذ كلّ طالب (جلاءه) أي صحيفة الطالب، رأيت رقيقاً لي يبكي عند باب المدرسة، سألته عن سبب بكائه، فناولني (جلاءه)، لقد نال في مادة اللغة العربيّة ٩, ٢٩/ درجة، أي ينقصه عشرُ الدرجة فقط، لأن علامة النجاح /٣٠/ درجة من /٦٠/، وقد توسّل المسكين إلى مدير المدرسة بعبراته قبل عباراته المستعطفة المسترحمة، لكن دون جدوى، وأعاد رقيقي السنة الدراسيّة مرّة أخرى .. نعم أعادها، فما أشبه اليوم بالأمس!.

## هل في الجنة كتب ..

قررت إدارة الثانوية التي أدرّس فيها إغناء مكتبة المدرسة بالإصدارات الحديثة من الكتب العلميّة والأدبيّة والفنيّة، شكّلت لجنة الشراء، وكنت أحد أعضائها، قصدنا أحد المراكز الحكوميّة لبيع الكتب، دخلنا باب المركز، لم نجد في الصالة الخارجيّة الكتب التي كانت تغصّ بها الرفوف ذات يوم، لقد امتلأت الجدران باللوحات التجريديّة، واحتلّت التماثيل المبتورة الرؤوس زوايا الصالة، وأحاطت بها الشعارات الوطنية والقوميّة، سألنا عن جناح بيع الكتب، أشار أحد الموظفين بيده إلى القبو دون أن يتكلّم، وبيده الأخرى سيجارة غليظة، تنفث دخاناً قاتماً، طغى على جوّ الصالة، نزلنا درجات القبو وانحرفنا إلى اليسار ثم إلى اليمين، وكأننا في أحد الأقبية السريّة، الكتب مكدّسة في خزائن تملأ الممرّات، وجناح بيع الكتب مغلق بباب من القضبان الحديديّة، لكنّ لا أحد في الداخل، عدتُ وسألْتُ ثانية الموظف الذي لم ينته من التدخين، فقال:

– ارفع صوتك وناد عليه .. إنه في الداخل.

أخذ أحدنا ينادي بنبرات عالية:

– يا أخونا .. يا سيّد .. يا معلّم ..

ثم شاركه بعضنا بالنداء بأصواتهم الحنونة. بعد دقائق خرج رجل من غرفة جانبية، يتشاءب وينظر بعين واحدة، والعين الأخرى ما تزال نائمة:

— من! ماذا!.. ماذا تريدون؟

— نريد أن نشترى بعض الكتب.

صحا الرجل قليلاً، واقترب منا ليتأكد، هل نحن جادون فيما نقول، يبدو أن ملامح وجوهنا لم تتضح له، فأشعل الضوء، نظر بعينين حراوين، تأكد أننا رجال حقيقيون، لا أشباح كان يراها في أحلامه منذ برهة.

— ماذا تريدون أن تشتروا؟

قالها، لعلّ الكتب التي نطلبها غير موجودة، فنصرف ويعود إلى أحلامه.

— نحن لجنة شراء الكتب في ثانوية المعري، وليس هناك كتب محدّدة، إنّما نريد أن نطلع على ما صدر حديثاً، لنغني مكتبة المدرسة.

— يعني لا تريدون كتاباً واحداً؟

— سنطلع على الفهارس، ومنتقى المناسب.

أسقط في يده فلا مجال للتهرب.



— هل مع أحدكم هويّة معلّم؟ إذا كان مع أحدكم هويّة فلها حسم كبير، يقترب من نصف الثمن الأساسي.

أراد أن يصرفنا مرّة ثانية، كان مع أكثرنا هويّات، فرأى ألاّ حيلة أمامه، فأخذ يتمطّي، ثم فتح الباب الحديديّ، خرج وأقفل الباب، ذهب دون أن يقول أيّ كلمة، ذهب إلى الحمام وعاد وهو يسعل سعالاً مقطّعاً، وأظنه كان يسبّنا في سرّه، ويسبّ الكتب والثقافة، فتح الباب وسمح لنا بالدخول.

— ماذا تطلبون الآن؟

— نريد أن نطلع على فهرس الكتب الجديدة.

أخذ ينظر في زوايا الغرفة، ويتنقّل من ركن إلى آخر، ويدور، وقف حائراً ويبدو أنّه تذكر، فتناول سجلاً من فوق الرفوف، نفّض الغبار عنه، وقدمه إلينا، أخذنا نقلّب الصفحات، ومنتقي المناسب والمفيد، وما يسمح به المبلغ الذي خصّص لشراء الكتب، نظر الموظّف إلى قائمة الكتب الطويلة التي انتقيناها وهو يصفر، ثم قال في محاولة أخيرة:

— ثمنها كبير!

— لا عليك المبلغ المُخصّص لشراء الكتب يكفي.

طفق يدور ويتذكّر مكان كلّ كتاب، ثم يخرج من مخبئه ويضعه على المنضدة، أخيراً وقف يحكّ رأسه، وينظر إلينا ولسان

حاله يقول "الآن وقت ثقافتكم" أخذ يفتش في أدراج طاولته وفوقها وتحتها، وعلى حواف الرفوف، ثم أخرج دفتر الإيصالات من تحت رزمة أوراق على طريزة صغيرة في زاوية الغرفة، وفوق الرزمة صينيّة، عليها فناجين مملوءة بأعقاب السجائر، عاد إلى سيرته يبحث عن قلم، ناولته قلماً من محفظتي... بعد أن أخذنا الكتب، سألته مازحاً:

– هل بيع الكتب مستمرّ طوال أيام الأسبوع؟

نظر إليّ ثم حوّل، عندما غادرنا أقفل الباب، ودخل غرفته الصغيرة ليتابع نومه، وهو يقول بصوت منخفض: ما هذا اليوم المنحوس؟! بمنّ تصبّحت اليوم!

وقفنا في صالة المركز التي كانت فيما مضى معرضاً، تباع فيه الكتب، ويحتشد فيها عشاق الكلمة، وتذكرت ذلك المهووس بالقراءة وكان قد كدّس كتباً، يبلغ ارتفاعها عن الأرض متراً، سألته:

– لمن كلّ هذه الكتب؟!

رد متحمساً:

– لي.. أنا لا أستطيع أن أعيش دون قراءة، ولو قالوا: لي ليس في الجنة كتب لرفضت أن أدخل إلى الجنة!! فماذا لو ذهب ذلك (المهووس بالكتب) إلى صاحبنا، وأيقظه، وطلب منه أكداً من الكتب؟!..

## أصدقاء الأمس

أوشكتُ أن أتسنّم أعوامي الستين، وقاربت سنّ التقاعد، وكان أن سكنتُ غرب المدينة، فانتقلتُ إلى ثانوية قريبة من سكني الجديد، لأكمل ما بقي لي من أعوام خدمتي، دخلت أولّ يوم إلى المدرسة، فشاهدت أصدقائي المدرّسين الذين قضيت بصحبتهم بضعة عقود من الزمن في مدارس عدّة، فرحت بلقائهم، وهجمت أقبلهم شوقاً إليهم وحينياً إلى الماضي الجميل الذي عشناه معاً، أحسست بأنّ شفاهم باردة جامدة، وعيونهم حائرة تتراشق فيما بينها بأسئلة غامضة مستنكرة، أعرفهم جيّداً، كان منهم المرح الذي ينثر النكات حيثما توجّه، ومنهم الباشّ الوجه الذي لا تغادر البسمة شفّتيه، ومنهم المتمسّك بحبال الدين التقيّ الورع، ومنهم ومنهم..

في ثانوية المعريّ التي درّست فيها أكثر من عقدين كان عددنا أكثر من خمسة وعشرين مدرساً، كنّا نجلس معاً على طاولة واحدة كبيرة، أو نتحلّق شتاء حول المدفأة، وكان الجميع على قلب واحد متحابّين، يقول أحدها نكتة، فيضحك لها الجميع، ويردّ آخر على الفور بنكتة أحلى وأمتع، فلا نريد أن تنتهي الفرصة ليستمر المرح البريء، وما نزال حتّى الآن نتذاكر كلما صادف بعضنا بعضاً المواقف المضحكة والفكاهات والتعليقات اللطيفة، التي لم تفقد حتى الآن مذاقها الحلو.

فما بالهم هنا! كلّ أربعة أو خمسة من المدرّسين — وبخاصة مدرّسي الموادّ العلميّة — يلتفتّ بعضهم حول بعض، يتهامسون، ويوسوسون، وأحياناً يتخاطبون بلغة العيون همزاً ولمزاً، ومجموعة أخرى تراقب بعيونها وآذانها وأنوفها، ثم تنضمّ فجأة إلى مركزها، تتمتم وتتفاهم، وثالثة..، جرّت بجانب أيّهم أجلس، وإلى أيّ ثلّة أنضوي، أحسست أنّ لا أحد يريد أن أنضمّ إلى مجموعته.

أزورّ عني الجميع فبقيت وحيداً "أعروري ظهور المهالك" ثم انضمتُ إلى مجموعة من المدرّسين (الدرأويش) أمثالي، الذين يدرّسون الموادّ النظريّة والعمليّة، كالفنون والرياضة والحاسوب، والتي لا تحتاج إلى مدرّسين خصوصيين يدرّسونها في بيوت الطلبة.

في الفرصة الأولى دخلت غرفة المدرّسين، ففاجأني أحدهم — وهو فيما يبدو زعيم مجموعته — قائلاً: يا أستاذ أنت أخ عزيز وصديق قديم، لذلك أريد أن أنصحك، لقد سارّرتني إحدى الطالبات، ولا أريد أن أذكر اسمها، وقالت لي: إنّ الطالبات لم يفهمنّ من الدرس الذي شرحته لهنّ أيّة كلمة، وأنت تعرف أنني أحبّك وأريد لك الخير.

صمتُ قليلاً، ثم أجبته: لكن يا صديقي الغيور أنا لم أعطِ الطالبات أيّ درس، ولم أشرح لهنّ أيّة قاعدة أو قصيدة، فالحصّة الأولى خصّصتها للحديث عن المنهاج، وخطة العمل أثناء العام وتوزيع الدروس والدفاتر المطلوبة، من قال لك هذا الكلام كاذب مدسوس، ولا يريد لي الخير، وتعمدت أنّ أذكر من يفترني عليّ هذا القول بصيغة المذكّر، ثم وقفتُ على باب الغرفة حتى عرفتُ طالبة

من طالباتي الجديّدات من لباسها المميّز – ففي اليوم الأوّل من الدوام الدراسي لا تلبس الطالبات اللباس الموحد – وسألتها أمام المدرّسين: هل فهمتِ الدرس الذي شرحته لكُنّ في الحصّة الأولى؟ أجابنتي يا أستاذ: نحن لم نأخذ أيّ درس، لكن كان الكلام عامّاً حول المنهاج وتوزيع الدروس والدفاتر.

تبدّل الزمان، وشوّه المال النفوس حتّى وصل إلى رُسل الفكر والعلم، فجلستُ أتذكّر أساتذتي الذين انتقل أكثرهم إلى جوار الرحمن، سليمان العيسى وخليّل هنداوي وجورج سالم وعلي رضا وخير الدين الأسدي.. والباقة تتنوّع وتضوع عطراً، ويتعدّد أزهارها..

## زيارة مندوب الوزارة

وزارة التربية عندنا تحاول مشكورة أن تجدد وتطور في طرائق ومناهج التعليم، وتحاول أن تطبق آخر وأحدث نظريات التربية التي توصلت إليها أرقى معاهد وجامعات العالم، إحدى هذه الطرائق ابتداء ما سُمّي وقتذاك (المدرّس الأوّل) متأثرة بإخوتنا المصريين الذين نقلوا تجربتهم إلى دول الخليج، والمدرّس الأوّل هو مدرّس قدير ذو خبرة طويلة، ومشهود له بالنشاط والسمعة الممتازة في التدريس، يُختار ليقوم بمتابعة زملائه المدرّسين، يحضّر دروسهم، ويتأكد من تطبيقهم للمناهج، وينظر في أسئلة الاختبارات، ويقوم عمل المدرّسين، ويتناقش معهم في كلّ ما يتعلّق بالمادة التي تخصّه وغير ذلك من المهامّ.

جاء أحد الموجّهين لمادة اللغة العربيّة مندوباً من الوزارة، ليجمع بالمدرّسين الأوائل، ويتابع سير وتطبيق هذه البدعة (المدرّس الأوّل)، ويزودهم بتوجيهاته وإرشاداته، كان ذلك في ثانوية نابلس للبنات عام / ٢٠٠١، دخل طاووساً باسطاً ريشه، ومن حوله المترفّون الذين يحاولون إفهام الحاضرين أنّهم أيضاً من أصحاب المكانة الخطيرة، لأنّهم يرافقون مندوب الوزارة، ويحظون لحظات بالحديث معه، وربما يقتنصون بسمة مشتركة فيما بينه وبينهم، لكنّ المندوب كان مُصرّاً على التجهّم، فلم يمنح بسمةً واحدةً، لأيّ منهم، فكانوا يجاملونه، ويبتسمون وحدهم، كانوا يفسحون له الطريق الفسيح أصلاً، سلّم المندوب على الحاضرين باتّزان ووقار، قام كبير

المتزلفين إلى الميكروفون يرحّب بالضيف الكبير، وبقدومه المبارك، فقد تحمّل مشقة السفر من دمشق إلى حلب ليجتمع بالمدرّسين الأوائل، ويقدم إليهم النصائح القيّمة والإرشادات السديدة.

بدأ المندوب حديثه عن فلسفة التربية الحديثة، ومتابعة المسؤولين في الوزارة آخر النظريات في تطوير العملية التعليمية، ومحاولة تطبيقها في مدارسنا، وخلق بعيداً في بيان النتائج الإيجابية والملموسة لخطط الوزارة المدروسة والعملية، وانتهى بالثناء على القيّمين على هذه الخطط الجريئة والتقدمية – علماً بأنّ تجربة المدرس الأوّل هذه استمرت سنة واحدة فقط، ثم ألغيت لفشلها أو لأسباب أخرى – تخيلت أننا نسبق سويسرا في طرائق التدريس، ومناهجنا تهزأ بمناهج الدول الإسكندنافية التعليمية في تخلفها عن حداثة مناهجنا، ثم أخذ الموجّه المندوب يجفّف عرقه، قدّم له أكثر من متزلف المناديل الورقية، وشاروا، ماذا يقدمون له أولاً الماء أم القهوة أم الشاي أم عصير الفواكه؟ وكان بعضها موجوداً أمامه على المنصة.

بدأت الأسئلة عن تطبيق هذه الطريقة الحديثة، وإيجابياتها – طبعاً دون أن يكون لها سلبية واحدة – والعقبات التي قد تقف في طريق تنفيذها، والموجه المندوب يجيب عنها، ثم قال:

– هل هناك سؤال آخر عن المنهاج أو غير المنهاج؟

وقفتُ أسأل، ولكن في اتجاه آخر، قلت:

— يا أستاذ، لقد درّسنا اللغات الأجنبية في مدارسنا الابتدائية والإعدادية والثانوية وفي الجامعات، دون أن نقع في أيّ كتاب منها على خطأ إملائيّ أو نحويّ أو زيادة حرف أو نقصان حرف، ولغتنا العربية التي هي أولى مقومات القومية العربية (وعنوان قوميتنا) كما ورد هذا عنواناً لأحد الدروس في كتاب القراءة في الصفّ الثاني الثانو، لغتنا هذه الجميلة المقدّسة نتهاون في دقّتها وضبطها، فنقع في كتبنا المدرسية وبخاصّة كتب اللغة العربية على عشرات الأغلاط في النحو وضبط الكلمات والحروف، فكتاب الأدب للصف الثالث الثانوي طبع منذ ستّ سنوات عام /١٩٩٥/ ولم يقم أحد من المسؤولين أو الذين ألفوا الكتاب بمراجعة الأغلاط وتصحيحها — وكان اسم ضيفنا هذا الموجّه والمندوب الوزاري قد وُضِعَ مع قائمة مؤلفي الكتاب الجديد — ومن هذه الأغلاط على سبيل المثال لا الحصر تأنيث كلمة (رأس) كما ورد في كتاب الفرع الأدبيّ في الصفحة /١٣٠/ شرح المفردات ، (طأطأ رأسه: خفضها)، وكذلك ضبط كلمة (حدّثان) صفحة /٩٠/، ومعناها كما أورده شارح الكتاب (النواب) فضُيِّبَتْ حدّثان، وحدّثان الشباب أوله، وهو غير المعنى المراد في قصيدة الزركلي:

الله للحدّثان كيف تَكِيدُ      بردى يَغِيضُ وقاسيونُ يَمِيدُ

وتابعت: كما أنّ هناك اختلافاً بين كتاب الفرع العلميّ وكتاب الفرع الأدبيّ في ضبط بعض الحروف واختلاف بعض الكلمات...

كان أكثر من حولي يهمسون:



– كيف تقول هذا الكلام للموجّه مندوب الوزارة!!

– عيب أنت لا تعرف مخاطبة المسؤولين..

– اجلس أنت لا تعرف مكانة الموجّه..

تلفتُ حولي، لا أعرف على أيّهم أرد، وقف أحد المتزلفين غاضباً، وأشار بيده كمسؤول خطير أن اجلس، قال وهو يرشقني بنظرات حادة:

– لقد ألفتُ لجنة لمتابعة هذا الأمر، والأستاذ الموجّه هو الذي اقترح تدارك هذه الهفوات وتأليف اللجنة، خلّص الكلام في هذا الموضوع، سؤال آخر..

طبعاً كان جواب هذا المتزلف من نسج خياله، فالموجّه لا يعلم أصلاً بالأغلاط، كما أنّ اللجنة التي قال عنها هذا المتزلف لم تُؤلف طوال الأحد عشر عاماً التالية، وبقيت الأغلاط موجودة في الكتاب القديم حتى آخر يوم من تدريسه عام /٢٠١٢/ عندما تقرّرت المناهج الحديثة، وعندني في مكتبتي نسخة من الكتاب طبعة /٢٠١١/ بأغلاطها، أي بقيت الأغلاط في كتب الأدب طوال سبعة عشر عاماً.

سأله أحد المدرّسين الأوائل:

– يا أستاذ، ما إعراب كلمة (وهج) في بيت الشعر الوارد في كتاب الفرع الأدبي صفحة /١٧٣/ (واحترقت ضيعتُنا وهج عناقٍ وقُبل)، فالمدرّسون مختلفون في إعرابها؟

راح الموجّه يحوص ويلوص، ويعرب كلمات أخرى لا علاقة لها بالسؤال، ويتحدث عن الخلاف بين النحويين، عاد المدرّس وسأله:  
- يا أستاذ، أنا أسألك فقط عن إعراب كلمة (وهج).

عاد السيّد مندوب الوزارة وهو أحد الموجّهين الأوائل لمادّة اللغة العربيّة إلى سيرته في بيان الأغلاط الفاحشة التي يقع فيها المدرّسون في الإعراب، وراح يوضّح أن الإعراب يحتاج إلى فهم معنى البيت الشعريّ أوّلاً، ثم علاقة الكلمة ببقية كلمات البيت، واستمر في شرح فلسفة الإعراب، دون أن يعرب كلمة (وهج).

قام للانصراف، فاندفع المتزلفون، يسرون حوله، ويتدافعون، وكلّ منهم يريد أن يكون الأوّل إلى جانبه، ثم ودّع بمثل ما أُستقبل به من حفاوة وتكريم وإجلال، كما يقال عند زيارة كل مسؤول.

## ابتسم أنت في الصف

اقتبست هذا العنوان من عبارة، قرأتها في إمارة الشارقة، مكتوبة بالورود على منحدر قرب البحر، بطول يقارب خمسين متراً "ابتسم أنت في الشارقة". أعجبتني هذه العبارة، فقال أحد أقربائي الذين كنت في زيارتهم: لهذه العبارة قصّة طريفة، انقلب قارب في مياه الخليج، فسبح مَنْ سبح، حتّى وصل أحدهم إلى شاطئ الشارقة، وعندما شاهدته صياد مضطرباً خائفاً، قال له: "ابتسم أنت في الشارقة"، فاتّخذت الإمارة هذه المقولة شعاراً لها.

قال لي مدير المعهد التعليمي الخاصّ الذي أدرّس فيه - فقد انتشرت هذه المعاهد الخاصةً أخيراً، حتّى كادت أن تغطى على عمل وزارة التربية - قال لي: أستاذ، وردتنا شكاوى عليك من أهالي الطالبات، أخذ خيالي يقلّب بسرعة صفحات أيّام الأسبوع بل الأسبوعين الماضيين، فلم أقف على أيّ مشكلة مع أيّ طالبة، قلت له: خيراً إن شاء الله، قال: يا أستاذ طالبة عندنا تدفع للمعهد مئتي ألف ليرة سورية، وإذا (زعلت) إحداهنّ فإلخسارة واضحة. أجبتّه: قل لي ما جريرتي أو جريمتي حتّى أخسر المعهد هذا المبلغ؟! ردّ: يا أستاذ، أنت عيناك واسعتان ما شاء الله، وعندما تنظر إلى طالبة فإنها تخاف، قلت له: يا أخي ما الشكوى عليّ؟ قال: بصريح العبارة إنك (تُزور) الطالبات، والطالبات عندنا - كما تعلم - رقيقات مهذّبات مؤدّبات مرتّبات، ولا يجوز أن نخدش رقّتهن بمثل هذه النظرات القاسية. قلت: لا حول ولا قوّة إلا بالله، الضرب عندكم كفر بل من

أعلى درجات الكفر، وتوجيه الكلمات القاسية أو الرقيقة يقترب من سور الكفر، والتنبيه ممنوع، وحتى نظرة اللوم أو التنبيه محرمة، ردّ: يا أستاذ أنت (سيدّ العارفين) معهدنا له سمعته، ويجب أن نحافظ على الطالبات، حتى لا تذهب واحدة منهنّ إلى معهد آخر، وكذلك نحافظ على سمعة المعهد، ابتسمت، وقلت له: قرأت مرّة عبارة أعجبتني، ثم حوّرتها فأصبحت "ابتسم أنت في الصفّ" سأأخذها من اليوم شعاري ورائدي، فما رأيك؟! ابتسم هو أيضاً، يوافقني على شعاري الحضاري.

عادت بي الذاكرة إلى الوراء نصف قرن، يوم كنتُ طالباً في دار المعلمين، التي دخلتها عام /١٩٦٣/ وتخرّجت فيها عام /١٩٦٧/، كنّا في إحدى باحات الدار في درس الفتوة، نتدرّب على (النظام منضم)، ويبدو أنّي ضحكت أو تصرّفت تصرفاً غير انضباطي، كوننا في الصفّ الأول، وكما يقال أغرار، لا نعرف القوانين والأنظمة، فضربني مدرّب الفتوة الملازم (.....) — وما أزال أنكر اسمه — وبدأ الدم يسيل من أنفي، ولم يسمح لي أن أذهب لأغسل وجهي، وأعمل على إيقاف النزف، بل تركني عبّرة لغيري حتّى نهاية الدرس، والدم يسيل، ويصبغ سترة الفتوة، كنت أشكو منذ صغري من الرعاف، فأستيقظ والوسادة مصبوغة بالدم، ويبدو أن وجهي المشربّ بالحمرة حتى الآن — وكما يعرف أصدقائي — يساعد على النزف، وبقي الدم يسيل طوال درس الفتوة.

عدتُ إلى البيت، أشكو إلى والدي رحمه الله تصرفَ مدرِّب الفتوة، وأريه الدم الذي يصبغ سترة الفتوة، وكان والدي محاسب الشرطة في مدينة حلب، وجميع الضباط والمسؤولين من زملائه وأصحابه، وكان عمي شقيق والدي له شأن في دمشق، فاجتماعاته دوماً مع الوزراء والكبار، لكن والدي سألني: هل ضرب مدرِّب الفتوة أحداً غيرك؟ أجبتُه: لا، فقال: لو لم تكن مشاغباً (رذيلًا) وتستحق العقوبة لما ضربك! ألححت عليه، لكنه لم يولني أذناً صاغية.

ما تزال هذه الحادثة محفورة على صفحة الذاكرة لا أنساها..

وأعود الآن من ذكريات أمس إلى مدير معهدنا الحضاري، فقد دخل في الحصّة الأخيرة إلى الصفّ محتقناً غاضباً، وقد لبس وجه (أبي لهب)، وهدر صوته منذراً متوعداً: قاربت السنة الدراسية على الانتهاء، والكثير من الطالبات لم يسدّدن ما عليهنّ للمعهد، أمامهنّ مهلة حتى نهاية الأسبوع، لا أقبل أيّ حجة أو عذر للتأخير. ثم ازدادت سورة غضبه، وتابع: وكل طالبة لا تسدّد ما عليها سوف أرميها فوراً خارج المعهد، ولا أسأل عنها وسوف... وسوف....

اقتربتُ منه، وهمستُ في أذنه بشكل حضاريّ قائلاً "ابتسم أنت في الصفّ"

## وفوق كل ذي علم

"من قال: إنّي علمت فقد جهل" حكمة أو قول مأثور، لا يُدرك معناه إلا من مارس وجرب، وخبر الحياة وخبرته، فمن توهم أنّه أحاط بالعلم فقد جهل حقيقة العلم.

اعتادت مدرسة الأمل الخاصّة أن تقيم بين فترة وأخرى وليمة، تدعو إليها الجهاز التدريسيّ والإداريّ وجميع طلاب صفّ معيّن مثل طلاب الصفّ الثالث الثانويّ، لتكرّم الجميع ولتقوي الألفة والمحبة فيما بينهم.

بعد الغداء بدأت المسامرات، وبدأ المزاح، فتحلّقت مجموعة من الطلاب والطالبات حول مائدة المدرّسين، يسألون عن أمور في المنهاج غامضة عليهم، تصادفهم أثناء دراستهم، فإذا سألتني أحدهم كنت كالطاووس غروراً، أجيبه، وأمازحه واثقاً من نفسي معتزلاً بغزارة علمي، وخصوصاً في النحو والصرف، فأين مني (سيبويه وابن جني ...) وكان جميع زملائي المدرّسين والإداريين حولي يراقبونني، والبسمة على وجوههم، إلى أن فاجأنتني طالبة بسؤال: كيف نوّكد الفعل للمفرد المذكّر بنون التوكيد مثل (يا طالب لا تلعب)؟ أجبتها: (يا طالب لا تلعبن أو لا تلعبن)، ثم سألتني: وكيف نوّكد الفعل المسند إلى ياء المخاطبة بنون التوكيد أيضاً مثل (يا طالبة لا تلعبين)؟ أجبتها: (يا طالبة لا تلعبين) بكسر آخر الفعل وحذف ياء المخاطبة وإضافة نون التوكيد، ثم سألت مع ضمير الاثنين وواو الجماعة إلى

أن سألت: وكيف نوّكد الفعل المسند إلى نون النسوة بنون التوكيد مثل (يا طالبات لا تلعبن)؟ فوجئت بل صدمت بسؤالها - وأنا كما يُقال في الوسط الفني تحت الأضواء - فالجميع حولي ينظرون إليّ معجبين بسرعة إجابتي، وغازرة علمي - طبعاً هذه الغازرة العلميّة بالنسبة إليهم فقط - لك الله أيتها الطالبة الملاح، من أين جئت بهذا السؤال! أتراها كانت مدفوعة من أحد ليُخرجني على رؤوس الأشهاد؟! أم أنّها بريئة غايتها المعرفة فقط؟! ابتسمت لها ورحت أمازحها ودماعي يقَلب في الخيال أحوال الفعل (يا طالبات لا تلعبن)، لم أقرأ منذ أن تخرّجت في الجامعة أيّ منذ أكثر من أربعين عاماً فعلاً مسنداً إلى نون النسوة ومؤكداً بإحدى نوني التوكيد، كما أنّ هذه الصيغة من التوكيد لم يُقرّر تدريسها في المرحلة الإعدادية أو في المرحلة الثانوية، لأنها صيغة نادرة وصعبة، خطر بيالي (لا تلعبنن)، لا ليس هذا صحيحاً، (لا تلعبنن)، لا يجتمع ساكنان، رحت أستجد بدماعي، هذه الآلة الجبّارة التي إذا ما استنّفرت أتت بالمعجزات.

طاف خيالي بين الكتب والمراجع، يقَلب الصفحات، وأنا يائس من العثور على ضالتي، قلت لنفسي لقد وقعتُ في الشراك، وفُضحتُ أمام الجميع، فجأة حطّ خيالي على صفحة في كتاب (مذكّرات سعيد الأفغاني)، قرأته وأنا أدرس في الجامعة، كان - رحمه الله - قد رتّب الأفعال مع نون التوكيد بشكل سهل ومبسط، ووقفتُ على آخر الجدول (يا طالبات لا تلعبنن) نطقها واثقاً فخرجت كالقذيفة، كلّ هذه المحاكمة أو المعركة الدماغية حدثت خلال ثوانٍ، وأنا أمازح الطالبة، وأطيل الوقت، لأخذ فسحة للتفكير - تماماً كما يقال عن الحلم الذي

نراه طويلاً في نومنا: إنه يحدث في ثوان — فما أروعك أيها الدماغ العجيب، وأين منك الحاسوب والماسوب!! لقد أنقذتني.. لقد أنقذتني..

دهش الجميع، وقال بعضهم: وهل هناك فعل بهذه الصيغة أو هذا اللفظ؟! قلت: نعم (يا فتيات لا تلعبنَّ) إنكم ترونه غريباً أو ثقيلاً على السمع لأنه نادر الاستعمال، ولم تتعوده آذانكم، فهل سمعتم أنه يجوز تثنية كلمة (رداء) في حالة الرفع على (رداوان) إلى جانب (رداءان)، وهل سمعتم أنه يجوز جمع كلمة (عداء) في حالتي النصب والجر على (عداوين) إلى جانب (عدائين)؟ أحببتهم وأنا أردد سراً قول (قاضي البصرة) في قصة (الجاحظ) الشهيرة "ما أكثر من أعجبتة نفسه، فأراد الله - عزَّ وجلَّ - أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً".

وقبلها بأعوام كنت في ثانوية المعري، أشرح أبياتاً من معلقة الشاعر (عمرو بن كلثوم)، وكانت مجموعة من طلاب وطالبات الدبلوم في الجامعة مع الدكتور المشرف عليهم، يحضرون الدرس للتدريب والنقد والمناقشة، كما هي العادة، وأنا أخوض مع الشاعر معمعان المعارك، أصول وأجول، ولكن بالقول فقط، دون أن أطعن فارساً، أو أجندل بطلاً، أغرّد وأحلق شرحاً وتعليقاً وإبداء رأي في الشاعر وقصيدته، متوهماً أنني (طه حسين) أو (شوقي ضيف).

رفع طالب يده وسأل: ما مؤنث كلمة (قَيْل) التي وردت في أحد أبيات القصيدة يا أستاذ



بأيّ مشيئةٍ - عمرو بن هندٍ - نكون لقيّلكم فيها قطينا !؟

ف (الْقَيْل) هو الملك من ملوك اليمن في الجاهليّة و(القطين) هم الخدم، فاجأني السؤال، وأنا أخلق مع الشاعر وقصيدته في أجواء العصر الجاهلي، وردّني إلى قاعة الدرس، لم أنكر أنّي قرأت كلمة (قَيْل) إلا في هذه القصيدة، فهي كلمة جاهليّة يمنيّة، لم تعد تُستعمل الآن، كانت عيون أفراد مجموعة الدبلوم قد انغرست في وجهي، تنتظر الردّ، ليكون هذا الموقف المُحرج مثلاً لمدرّبهم، يعلمهم كيفية تخلّص المدرّس من مأزق حرج مثل مأزقي، أخذت أقلب الكلمة على وجوهها، واستحضر في دماغي كلمات أخرى تشبهها، فلم أقع في تلك اللحظات على شبيه لها، فقلت على البديهة إنقاذاً للموقف: مؤنث كلمة (قَيْل) (قيلة) متعمّداً لفظها قريباً من اللفظة العاميّة والمعنى الطّبيّ الشائع لها، فغرق طلاب وطالبات جماعة الدبلوم في موجة من الضحك المكتوم، وهكذا أنقذت نفسي من الوقوف أمام طلابي وأمام الجميع عاجزاً جاهلاً أمور اللغة.

عدت إلى البيت ونظرت في القواميس، فلم أجد مؤنثاً لتلك الكلمة الجاهليّة.

## كأسنان المشط

– يحاسبني المدير مع غيري من الطلاب على التأخير ولو كان دقيقة واحدة، فأنعم بالنظام سلماً إلى الحضارة!.

ويتأخر زميلنا (م ..) عن الدروس ، ويتغيب أياماً عن مدرستنا (دار المعلمين) – يقال إنه ذهب في مهام خاصة – ولا يسأله أحد!

– في فحص أهلية التعليم الابتدائية كان المراقبون في قاعاتنا من حزب الخوارج، ومن فرقة الأزارقة بالتحديد صرامة وضبطاً لسير الامتحان.

ووضِعَ هو ولفيف من أمثاله في غرفة صغيرة، وجاءهم مراقبون، لا يعرفهم أحد، وأُغلق الباب عليهم.

– عُيِّنَتْ في إحدى القرى النائبة المبنية من الطين، أسير إليها في الوحول على الأقدام عشرة كيلو مترات لأقوم بمهمة الأنبياء.

وعُيِّنَ هو مباشرة موجّهاً في دار المعلمين التي درّسنا فيها أربع سنوات عجاف.

– ذهبت إلى الخدمة الإلزامية، أخدم في سلاح الهندسة (إزالة الألغام) في الخطوط الأمامية.

وأمضى هو خدمته الإلزامية في أحد فروع الأمن – شعبة مراقبة الفنادق والملاهي –.

— نلتُ الإجازة الجامعيّة في اللغة العربيّة، وبقيت أعلم ثم أدرّس في المدارس والثانويّات النائية حول المدينة سنوات، حتّى يجدوا لي شاغراً قريباً من بيتي .

وأصبح هو مسؤولاً، ورئيساً لإحدى شعب التربية، دون أن يحصل على أكثر من شهادة التعليم الابتدائيّة.

— أقف في الحرّ والقرّ، أنتظر الباص لأحشر في أحشائه مع عباد الله الكادحين.

ويمرّ هو بسيّارته (المرسيدس) سهماً، تكاد لا تلمحه العين، بجانب زوجته الشقراء.

— أعمل بعد دوام المدرسة في كلّ مهنة أو عمل، يُتاح لي، لأشدّ أزر راتبي.

وأنشأ هو معملاً للبلاستيك، ثم سوبرماركت من أربعة طوابق.

— استقرضتُ من البنك مبلغاً من المال، وبعث (صيغة) زوجتي، واشتريت بيتاً غرفتين وممرّاً في الطابق الأخير (مُرْتَجَعاً ثانياً) في حيّ شعبيّ.

وبنى هو (فيلاً) في ضاحية المدينة الغربيّة من ثلاثة طوابق خاصّة به وبأولاده.

— أقضي أيام الصيف القائظة في بيتي القرميدي، الذي تصطاف الشمس على سطحه.

ويقضي هو أيام الصيف في مزرعته الخاصة، التي تغصّ بكل ألوان الورد وكل أنواع الثمار والخضروات، قال مرّة بعد أن استقال من التعليم: إنّه يعشق الطبيعة، فما إنْ تبتسم أزهار الربيع حتّى يهرب من صخب المدينة وغبارها ومخالطة الناس فيها إلى مزرعته، ولا يغادرها حتّى تبلّله أمطار تشرين.

— أمضيت عمري، وأنا أحلم بجمع مبلغ من المال لأداء فريضة الحجّ أو شعيرة العمرة، وبقي الحلم حُلماً ...

أمّا هو فقد حجّ حجة (شاهرليّة)، عشاء مناسف، وجوقة منشدين، وفرقة رقص شعبيّ، وقيل: في جناح النساء مع المناسف رقص شرقيّ.

— عندما جرت الأحداث الأخيرة نزحت مع أسرتي، وسكنا مع ثلاث أسر أخرى غرفة واحدة في إحدى مدارس المناطق الآمنة .

وسافر هو وأسرته إلى إستانبول، وقيل إلى أمريكا عند ابنه الذي يدرّس الطبّ.

— عندما حانت منيّتي ومنيته وقفنا على باب السماء ننتظر، وقف هو في المقدمة، وكلّه ثقة بأنّه سيدخل أوّل الداخلين، وبقيت خائفاً، أتساءل: تُرى هل سيُسمح له بالدخول، وأبقى خارج مملكة السماء، محروماً أيضاً من رحمها!!!

- المحتوى -

٥	كلمة لا بد منها .....
٨	البداية من الخوجة .....
١٥	محطات خريفية .....
٢٠	الانتصار الكبير .....
٢٢	قف وارفع يديك .....
٢٥	العاصفة .....
٢٨	تدور أو لا تدور .....
٣٢	والرجال قوامون .....
٤٠	الحاجب .....
٤٣	دفتر التحضير .....
٤٦	التمهيد .....
٤٩	صانع القرار .....
٥٣	قم للمعلم .....
٥٦	الاستيداع .....
٥٩	متابعة كل جديد .....
٦٢	المجزرة .....
٦٤	رئيس مركز .....
٦٩	عيد المعلم .....
٧٢	سير معلومات .....
٧٥	هل في الجنة كتب .....
٧٩	أصدقاء الأمس .....
٨٢	زيارة مندوب الوزارة .....
٨٧	ابتسم أنت في الصف .....
٩٠	وفوق كل ذي علم .....
٩٤	كأسنان المشط .....